

سَيِّد قُطُب

هَذَا الدِّين..



الغرباء
guraba

نسخة نت

سيد قطب
هذا الدين



هَذَا الدِّين....

هذا الكتاب

يبينُ أنَّ دينَ الله تعالى صَالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.. وما أحدثَه مِن تغييرٍ في حياةِ البَشَرِ سَابقًا صُورةٌ لما يُمكِنُ أن يُحدِثه لاحقًا إنْ قامَتْ العُصْبَةُ المؤمنةُ وحَمَلَته كما حَمَله الرَّعيلُ الأَوَّل.. فهو مَنْهَجٌ إلهيٌّ يتمُّ تحقيقه في حُدود إمكانيات البَشَر.. منهجٌ مُتَفرِّد يخلو من أهواء البَشَر.. لهُ رَصِيدٌ من الفطرة، ورَصِيدٌ مِن التجربة .. مَنْهَجٌ مُيَسَّرٌ ومُؤَثِّرٌ، ولم يكن تأثيرهُ فقط في الأُمَّة الإسلاميَّة ولكنه أثَّرَ في البَشَريَّة كلها.

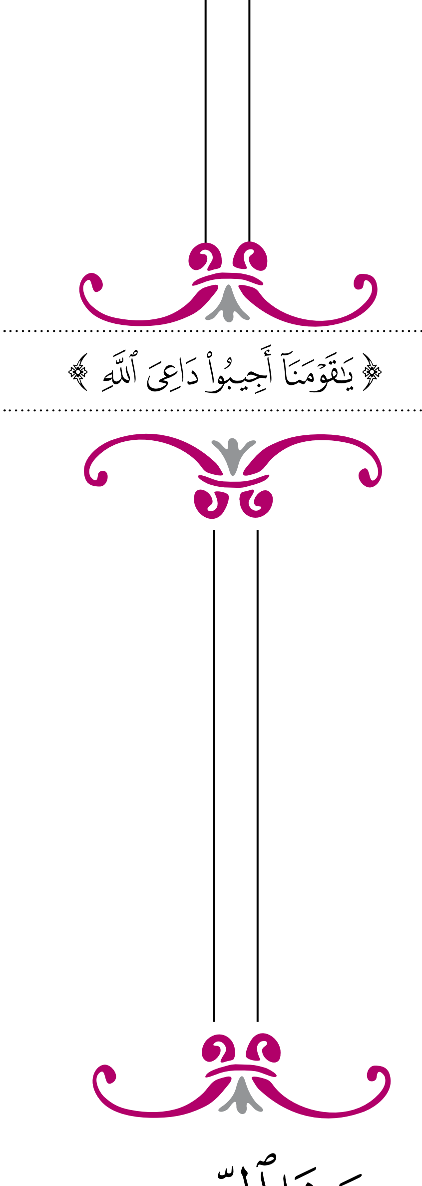
وأنَّ هذا الدِّين جاء ليربط بين النَّاس على أَسَاس أَشْرف خاصيَّة يختصُّ بها الإنسان عن غيره وهي العقيدة ...

النَّاشِر

هَدفنا نشر الإسلام الحق

الغرباء
guraba

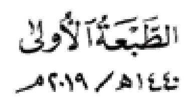

9 786052 107379



هَٰذَا ٱلدِّين ..



ISBN: 978- 605- 2107- 37- 9




GURABA YAYINCILIK TİC. LTD. ŞTİ.


الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

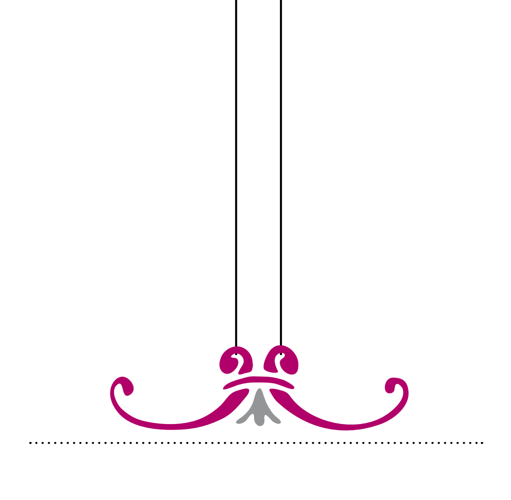

Çatalçeşme Sok. Defne Han No: 27/5
Cağaloğlu - Fatih / İstanbul / TÜRKİYE

gurabayayinlari | (0090) 212 526 06 05
guraba yayinlari | (0090) 507 286 14 14
www.guraba.com.tr | guraba@hotmail.com


سيد قطب

هذا الدين ..

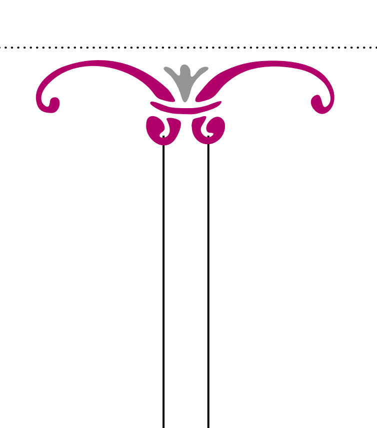
الغرباء
guraba

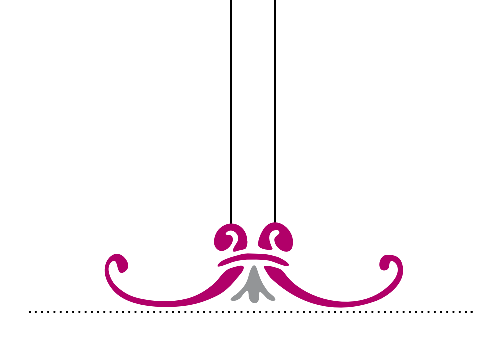






اللهم انفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه وسامعه وناشره
واجعله لوجهك خالصا
آمين





مُقَدِّمَةُ ٱلنَّاشِر

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على المبعوثِ رحمةً للعالين؛ نبيِّنا وهادِينا إلى الحقِّ الموصِّل إلىٰ جنات النَّعيم محمَّدٍ، وعلىٰ آلِه الطيبين وصحبِه الغرُّ الميامين أَجمَعينَ، وبعدُ:

ففي زحمَةِ المناهِجِ الَّتي تَعجُّ بها حياةُ البشرِ، والَّتي تختَلِطُ وتُعشِي البصَرَ والبصيرَةَ، يقِفُ هذا الدِّينُ منهجًا إلهيًّا يفتَحُ ذراعَيهِ أَمامَ الإنسانِ المعاصرِ، مجيبًا عن أَسئلَتِه المحيرَةِ، مادًّا أَمامَه طريقًا لاحِبًا للهدايةِ والرُّشدِ؛ كما هدَىٰ أَجيالًا وأُممًا كثيرةً من النَّاسِ من قبلُ.. فهو دينُ الله المتعالي علىٰ حدودِ الزَّمانِ والمكانِ، الَّذي أَنزلَهُ الله ـ سبحانَه ـ هدايةً للبشريَّةِ أَجمع في مختلَفِ أَزمانِها وأَعصارِها، وعلىٰ اختلافِ أَحوالِها ومناهِجها.

هذا الدِّينُ الَّذي أَنزلهُ اللهُ من لدنهُ لهدايةِ البشريَّةِ، واصطفَىٰ له تلك الثُّلَةَ المباركةَ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ الَّذين قاموا به في



العسرِ واليسرِ، والمنشَطِ والمكرَهِ؛ فكانوا مثالًا يحتذَىٰ للإنسانية كلِّها تتعلَّمُ منهم صدقَ الوفاءِ، ووقدَةَ العزيمَةِ، وصفاءَ السَّريرةِ، أُوذوا وقوتِلوا واستُضعِفوا.. ثمَّ منَّ الله تعالىٰ عليهم بنصرِه وفتحِه، فما غيَّروا ولا بَدَّلوا فرضوانُ الله عليهم أَجمعين فقد كانوا خيرَ جيلٍ بشهادَةِ الله ﷻ حيثُ مدحَهم ـ سبحانَه ـ بقوله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولمَّا كانَ من سننِ الله تعالىٰ لتثبيتِ الدَّعواتِ أَن يصقُلَ أَتباعها بالابتلاءِ لينظُرَ كيفَ يعملُونَ.. فقد كانَ هذا الجيلُ مثالًا للبشريةِ في الصَّبرِ على البلاءِ والمكارِه.. تحقيقًا لسننِ الله تعالىٰ، وامتثالًا لأَمرِه.. وصبرًا علىٰ قضائه؛ فلمَّا رأَىٰ ـ سبحانَهُ ـ منهم هذا الثَّباتَ أَيَّدهم بروحٍ منه، وأَنزَلَ عليهم نصرَه وتأْييدَه، فهو الفعَّالُ لما يريدُ.

هذا هو محورُ هذا الكتابِ الدَّليل؛ الَّذي خطَّه قلمُ المفكِّرِ الكبيرِ الأَديبِ، شهيدِ الصحوة الإسلاميَّةِ المعاصرةِ، وباعثِ الرُّوحِ الموارةِ في أَوصالِها؛ الأُستاذ الكبير سيِّد قُطُب رحمه الله وأَجزَلَ له المثوبةَ.

بعدَ بيانِ واقعِ احتياجِ الدَّعواتِ لجيلٍ يحمِلُها.. فصَّلَ المؤلِّفُ في طبيعةِ الرِّسالةِ الخاتمة لهذا الدِّينِ، فبدأَ بشهادَةِ التَّوحيدِ ومستلزماتها

وهي أُسُّ الإسلامِ وأَساسه، وما ينتُجُ من التمسُّكِ بها من شعورِ الإنسانِ بعزَّته، وتحرُّرِه من العبوديةِ لغيرِ الله الواحدِ الأَحدِ، فيستَوي لديه الموتُ والحياةُ في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ: «**لا إله إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ الله**» ولو حاربَه جبابرةُ الأَرضِ، وحاولَ قهرَه أَعتى الطُّغاةِ.

ثمَّ بدأَ ﵀ يذكُرُ مميزاتِ هذه العقيدَةِ ويُظهِر أَثَرَها في حياةِ البشرِ، من كونها ملبيةً لنداءِ الفطرَةِ، أَخلاقيةً بسيطةً غيرَ معقَّدةٍ، وهذهِ طبيعةُ رسالةِ الله، المتساوِقةُ مع فطرةِ الإنسانِ.

وهنا يجنَحُ سيِّد ﵀ لبيانِ آثارِ الابتعادِ عن هذه الفطرَةِ في حياةِ الأُممِ والشُّعوبِ؛ ابتداءً بجاهليَّةِ العربِ قبل البعثَةِ، ومرورًا بحضاراتِ الرُّومانِ واليونانِ والهندِ.. حتَّىٰ يتكلَّمَ عن الكنيسَةِ ومدَىٰ ابتعادها عن نداءِ الفطرةِ في تحريمِ ما أَحلَّ اللهُ من زواجٍ علىٰ رُهبانها وأَحبارِها، وأَثرِ الإسلامِ منهجِ الله الفطريِّ في الدِّيانةِ النصرانيةِ، والَّذي تمثَّلَ في حركاتِ الإصلاحِ الدِّينيِّ الَّتي شهِدَتها أَوروبا تأَثرًا بمسلمي الأَندلس، وقيامِ المنهَجِ التجريبيِّ فيها تأَثرًا بالمنهَجِ التجريبيِّ عندَ علماءِ المسلمينَ.

لكن هلْ كان هذا الانقلابُ الَّذي أَحدَثه الإسلامُ حكرًا علىٰ زمنٍ دونَ زمنٍ، أَو فئةٍ من النَّاسِ دون سائرِهم؟

كلا، فدينُ الله ومنهجُه صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وما أَحدثَه من تغييرٍ في حياةِ البشرِ سابقًا صورةٌ لما يمكِنُ أَن يحدِثه لاحقًا إن قامَتْ تلكَ العصبَةُ المؤمنةُ وحملَته كما حمله الرَّعيلُ الأَوَّلُ.

وما وقوفُ الجاهليَّةِ المعاصرةِ الَّتي ضارعَتِ الجاهليَّاتِ القديمةَ؛ بيد أَنَّها فاقَتها في التقدُّمِ التقانيِّ والعلميِّ بمانعٍ جيلَ الدَّعوةِ من تبليغِ رسالةِ هذا الدِّينِ للبشريَّةِ، فهم الجيلُ الَّذي يقتَفِي أَثَرَ الجيلِ القرآنيِّ الفريدِ.. يحذو حذوَه.. ويلزَمُ غِرزَه.

إنَّ كتاباتِ الأُستاذ سيِّد قطب ﵀ في بيانِ منهَجِ الدَّعوةِ المعاصرَةِ تمثِّلُ منعطفًا هامًّا في مسارِ هذه الحركةِ المباركة؛ فهو رجلٌ قرأَ القُرآنَ وحفِظَه صغيرًا، وأُشرِبَ حبَّ تلاوتِه وسماعِه من والدَتِه الَّتي وصفَها في كتابِه: «التصوير الفني في القرآن» وبيَّنَ مدىٰ حبِّها لسماعِ القرَّاءِ يصدَحونَ بآياتِ الله، ثمَّ درَسَ العلومَ العصريَّةَ في المدارِسِ الحكوميَّةِ، وأَكبَّ على القراءةِ والمطالعةِ إكبابًا عزَّ نظيرُه، وانتسَبَ إلىٰ كليةِ دارِ العلوم وتخرَّجَ فيها، واشتغَلَ بالآدابِ العامَّةِ، مؤلفًا وناقدًا، وتتلمذَ على الأُستاذِ الكبيرِ عباس محمود العقادِ.

ثمَّ عمِلَ بالتَّدريسِ ردحًا من الزَّمنِ، وصارَ أَديبًا يشارُ إليه بالبنانِ، يشهَدُ علىٰ ذلكَ المجلاتُ الأَدبيَّةُ العاليةُ لا سيما

«مجلَّـةُ الرِّسـالةِ المصريَّـةُ» الَّتي كانَـتْ مقالاته فيها تحتَـلُّ المكانةَ السَّـامقةَ، وكتاباتُـه الأَدبيـةُ العديـدةُ، وتلمذَتـه للأُسـتاذِ عبـاس محمـود العقـاد عمـلاقِ الأَدَبِ والفكـرِ والثَّقافـةِ.

ثمَّ يشاءُ الله أَن يسافرَ الرَّجلُ في رحلَةٍ علميةٍ إلىٰ أَمريكا، ويرىٰ ثمارَ هذه الحضارَةِ علىٰ أَرضِ الواقعِ، ويعاينَ الفِردَوس الَّذي كان يتغنَّىٰ بِهِ معاصرُوه ولدَّاتُه من المنبَهِرينَ بالغربِ وثقافَتِه، الآخذينَ علىٰ عواتقِهم التبشيرَ بمناهجِه ودعوةِ بني جلدَتهم للأَخذِ بها، ونبذِ ما هم عليهِ من دينٍ وخُلقٍ.

أَحدثَت هذه الرِّحلةُ هزَّةً عنيفةً في حياةِ الأُستاذِ سيِّد ﵀ فبدلًا من الانبهارِ بهذا التقدُّمِ والمظاهرِ الحضاريَّةِ الفتَّانةِ، فقد صدمَتْ هذهِ المشاهدُ الرَّجلَ وجعلَته يعودُ إلىٰ حياتِه مُصحِّحًا مسارَها، ناظرًا في أَفكارِه جميعًا، فكانَ هذا من أَشجَعِ المواقفِ وأَقواها في حياةِ البشرِ، فتراه عائدًا عن غالبِ ما كان فيهِ، هاجرًا المجدَ الأَدبيَّ والشُّهرةَ العريضةَ الَّتي كانَ يحياها، مكبًّا على القرآن الكريمِ، متعرفًا أَسرارَه، متفيئًا ظلالَه، فكان نتيجةُ هذه المرحلةِ من حياتِه: «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وكتابُه ذائعُ الصِّيتِ: «في ظلالِ القرآنِ» في طبعَتِه الأُولىٰ.



ثـمَّ ينتَسِـبُ إلـى الحركـةِ الإسـلاميَّةِ غيـرَ عابئ بما قـد يجرُّه هـذا الانتسـابُ من مشـاكلَ وويـلاتٍ عليهِ.

ولما بدأَ سيِّد ﷺ يصدَعُ بما يراه حقًّا مدافِعًا عنه، مؤلِّفًا الكتبَ والمقالاتِ لإيضاحِ سبيلِه، مبيِّنًا الجاهليَّةَ المعاصرةَ الَّتي تحياها الأُمَّةُ، لم يرُقْ ذلكَ للطُّغاةِ من عملاءِ الاستعمارِ، فزجُّوه في السُّجونِ المرَّةَ تلو الأُخرىٰ، لم يرحَمُوا كبَر سنِّهِ وشيبَتَهُ ومرضَهُ، فاحتمَلَ هذا، وثبَتَ علىٰ عقيدَتِه الَّتي خالطَتْ بشاشةَ فؤادِه، وألَّفَ في سجنِه كتابه الأَشْهر: «**معالمُ في الطَّريقِ**» فكانَ هذا الكتابُ بما حملَهُ من روحٍ فياضةٍ وعاطفةٍ جيَّاشةٍ الوثيقَةَ الَّتي دفعَتِ الطُّغاةَ إلىٰ إعدامِه، فمضى إلىٰ ربِّه شهيدًا ـ إن شاء الله ـ ولا نُزكِّي علىٰ الله أَحدًا. يشكُو إليهِ ما يفعَلُ الطُّغاةُ من إيذاءِ أَهلِ الحقِّ وتقتيلِهم.

وكأنَّه ﷺ كانَ يستشعِرُ هذه النِّهايةَ، فقد ختَمَ كتابَه «**المعالم**» بذلكَ الفصلِ العجيبِ؛ متحدِّثًا عن أَصحابِ الأُخدودِ الَّذين مَضَوا إلىٰ ربِّهِم في سبيلِ العقيدَةِ، وانطوَتْ صفحتهم في هذِه الدُّنيا، لكنَّ اللهَ تعالىٰ جعَلَ قصَّةَ كفاحِهم قرآنًا يتلى إلىٰ أَن يرِثَ اللهُ الأَرضَ ومن علَيها، بينما ذهَبَ ملكُ ذلكَ الملِكِ الكافرِ، ومُحِيَ ذكرُه فلم يبقَ له في التَّاريخِ ذكرٌ ولا أَثرٌ.

وهذِه كتاباتُ سيِّد ﷺ تبقَىٰ منارةً للأَجيالِ المسلمَةِ في حينِ أَهلَكَ اللهُ الطُّغاةَ الَّذين حاكمُوه وقتلُوه، وهذا جزاءُ كلِّ منحرفٍ عن منهجِ الله وشريعَتِه الغراء.

إنَّنا بحاجةٍ في هذا العصرِ الموَّارِ بالأَفكارِ المتنازعَةِ المتلاطمَةِ أَن نتبيَّنَ المنهجَ الإلهيَّ، ونتعرَّفَ مزاياه ومعالمَه، وكتاباتُ الأُستاذ سيِّد قطب ﷺ خيرُ هادٍ يهدِي شبابَ الحركةِ الإسلاميَّةِ إلىٰ هذا المنهَجِ، يجِدُ فيها قارئها روعَةَ البيانِ وإشراقتَهُ، وقوَّةَ الفكرَةِ وعمقَ الإيمانِ بها، ويتمثَّلُ تاريخَ الشَّخصِ فتتبدَّىٰ أَمامَه حياتُه خيرَ تطبيقٍ لما يدعُو إليهِ، ويدرِكُ القارئ أَن أَهمَّ شيءٍ في الكتابةِ أَن ينفَعِلَ الكاتبُ بما يكتُبُ فيجاهِدَ في سبيلِ عقيدَتِه، ويدفَعَ دمَه ثمنًا رخيصًا نُصرةً لها، وإعلاءً لكلِمَتها.

وكتابُ «**هذا الدِّين**» خيرُ مثالٍ لهذه الفكرَةِ المتَّقِدةِ، والعاطفَةِ المشبوبةِ، مبينٌ فطرةَ الله تعالىٰ وطبيعَةَ منهجِهِ ودينِه الخالدِ.

وقد توجَّهتْ عنايتُنا لإخراجِ الكتابِ بأَبهىٰ حُلةٍ تسرُّ قارئه والنَّاظرَ فيه، فقُمنا بضبطِه بالشَّكلِ، وحلَّيناهُ بعلاماتِ الترقيمِ الَّتي توضِحُ مُشكِلَه وتبينُ غامضَه، وتفصِّلُ فقراتِه. كما وَضَعنا بأَوَّل الكتاب ترجمة للمؤلِّف ﷺ في سطور .

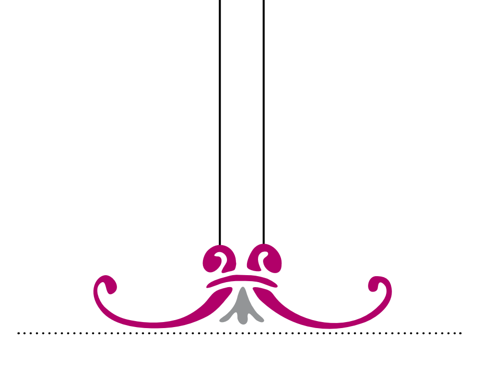
نسألُ الله ـ تبَارك وتَعَالىٰ ـ أَن نكونَ قد وُفِّقنا فيما قمنا به، وأَلا يحرِمَنا ـ سبحانَه ـ أَجرَ ذلكَ، وأَن يتدارَكَ الأُستاذ سيِّد قُطُب بفيضِ رحماتِه وواسِع مغفِرَته، وأنْ يتقبَّله في الصَّالحين.. إنَّه وليُّ ذلكَ والقادِرُ عليهِ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين

كتبه
عبد الله بن عبد الحميد الأثري
نزيل إصطنبول عفا الله عنه
عضو الهيئة العُليا لرابطة علماء المسلمين
ومؤسس مكتبة الغرباء

٧ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ

١٤ديسمبر ٢٠١٨م



سيِّد قُطُب في سُطُور

* وُلِد سيِّد قطب رحمه الله عام (١٩٠٦م) ونَشَأ نَشْأَةً إسلاميَّة في أُسْرة مُحَافظة، وحَفظ القرآن وهو ابن عشر سنين.

* دَرَسَ في «مدرسة المُعلمين الأَوَّلية» ثمَّ «كلية دار العلوم» فتخرج منها عام (١٩٣٣م) ثمَّ عمل كمدرس ست سنوات، ثمَّ انتقل إلىٰ وزارة المعارف، وشغل عدة وظائف.

* اهتمَّ بالنقد الأَدبي وتتلمذ في مدرسة العقاد الأَدبيَّة، وكَتَبَ الكثير من المقالات والقصائد في المجلات المعروفة مثل «دار العلوم» و«الرسالة» و«الجهاد» و«البلاغ» وغيرها.

* بالإضافة لاهتمامه بالنقد الأَدبي ومقالاته المختلفة.. اتجه نحو القرآن فأَصْدَرَ كتابين: «التَّصوير الفنِّي في القرآن» و«مَشَاهد القيامة في القرآن» في الفترة (١٩٤٥ - ١٩٤٧م).

* سافر إلىٰ أَمريكا في بعثة لدراسة التعليم هناك في الفترة (١٩٤٨-١٩٥٠م) وبعد أَن عاد منها اتجه نحو العمل الإسلامي



المَحْض ، وشارك في تنظيم الضُّباط الأَحرار؛ حتَّىٰ كان يزعمون أَنَّه منظِّرهم الأَوَّل، وقائدهم الرُّوحي.

* انضمَّ إلىٰ جماعة الإخوان المُسْلِمين عام (١٩٥٣م) واعتقل مع آلاف الإخوان عام (١٩٥٤م) وحُكِم عليه بالسّجن خمسة عشر عامًا، قضىٰ منها عشر سنوات .

* في هذه الفترة كُتب مؤلفات نافعة أَودع فيها خُلاصة تَجربته، وعُصَارة أَفكاره، وهي: «هذا الدِّين»، «المُسْتقبل لهذا الدِّين»، «خصائص التَّصَوُّر الإسلامي»، «مُقومات التَّصَوُّرالإسلامي»، «مَعَالم في الطَّريق»، «في ظِلال القرآن».

* أُفرج عنه عام (١٩٦٤م) ثمَّ أُعِيد اعتقاله في أُغسطس عام (١٩٦٥م) بتُهمة قَلْب نِظام الحكم، وحُكِم عليه يوم (٢٢/ ٨/ ١٩٦٦م) بالإعدام شَنقًا من قبل مَحْكَمة عَسْكريَّة ظالمة، ونُفِّذ الحكم بعدها بسبعة أَيام .

* خَتَم حياته المُباركة رائـدًا في الثَّبات على الإيمان والمَبادئ، وقُدوةً في الاستشهاد في سبيل الله. وقدَّم نفسه ودمه رخيصة ـ بدون تردُّدٍ ـ في سبيل أَفكاره ومبادئه، فنتصر على أَعداءه بخلود فكره... رَحِمَهُ الله وتقبَّله في الصَّالحين .

***



سيد قطب

هذا الدين ..





مَنْهَجٌ لِلْبَشَر

هُناكَ حَقِيقةٌ أَوَّلِيَّةٌ عنْ طَبيعةِ هذا الدِّينِ، وطَرِيقَةِ عَمَلِهِ في حَياةِ البَشَرِ.. حَقِيقَةٌ أَوَّلِيَّةٌ بَسِيطَةٌ.. ولَكِنَّها معَ بَسَاطَتِهَا، كَثِيرًا مَا تُنْسَىٰ، أَوْ لَا تُدْرَكُ ابْتِداءً؛ فيَنْشَأُ عنْ نِسْيَانِهَا أَوْ عَدَمِ إِدْرَاكِهَا خَطَأٌ جَسِيمٌ في النَّظَرِ إلىٰ هذا الدِّينِ: **حَقِيقَتُهُ الذَّاتِيَّةِ ووَاقِعُهُ التَّارِيخِيِّ؛ حَاضِرُهُ ومُسْتَقْبَلُه كذلكَ!**

إنَّ البَعْضَ ينتظِرُ منْ هذا الدِّينِ ـ ما دامَ مُنَزّلًا منْ عِندِ الله ـ أَنْ يعمَلَ في حَياةِ البَشَرِ بِطَرِيقَةٍ سِحْرِيَّةٍ خَارِقَةٍ غَامِضَةِ الأَسْبابِ! ودُونَ أَيِّ اعْتبارٍ لطَبيعَةِ البَشَرِ، ولِطاقاتِهِمُ الفِطْرِيَّةِ، ولِواقِعِهِمُ المادِّيِّ، في أَيِّ مَرْحلَةٍ من مراحِلِ نُمُوِّهِمْ، وفي أَيَّةِ بيئةٍ من بيئاتِهِمْ.

وحِينَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يعمَلُ بهذِهِ الطَّرِيقَةِ، وحِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الطَّاقَةَ البَشَرِيَّةَ المَحْدُودَةَ، والوَاقِعَ المادِّيَّ للحَياةِ الإِنسانيَّةِ، يَتَفاعَلَانِ مَعَهُ، فيَتَأَثَّرانِ بِهِ في فتَرَاتٍ تَأَثُّرًا وَاضِحًا، علىٰ حينِ



أَنَّهما في فَتَراتٍ أُخْرىٰ يُؤَثِّران تَأْثِيرًا مُضادًّا لِاتِّجاهِهِ، فتَقْعُدَ بِالنَّاسِ شَهَواتُهُمْ وأَطْمَاعُهُمْ، وضَعْفُهُمْ ونَقْصُهُمْ، دُونَ تَلْبِيَةِ هتَافِ هذا الدِّينِ، أَوِ الاتِّجاهِ معه في طَرِيقِهِ..

حِينَ يَرَوْنَ هَذا فَإِنَّهمْ يُصابونَ بخَيْبَةِ أَمَلٍ لم يَكُونوا يَتَوقَّعُونَها ما دامَ هذا الدِّينُ مُنَزَّلًا منْ عندِ الله أَو يُصَابونَ بِخَلْخَلَةٍ في ثِقَتِهِمْ بجِدِّيَّةِ المَنْهَجِ الدِّينِيِّ للحَياةِ وواقِعِيَّتِهِ، أَو يُصَابونَ بالشَّكِّ في الدِّينِ إِطْلاقًا!

وهذِهِ السِّلْسِلَةُ منَ الأَخطاءِ تَنْشَأُ كُلُّهَا منْ خَطَأٍ واحِدٍ أَساسِيٍّ: هو عَدَمُ إدراكِ هذا الدِّينِ وَطَريقَتِهِ، أَو نِسْيانُ هذه الحَقِيقَةِ الأَوَّلِيَّةِ البَسِيطَةِ.

إِنَّ هذا الدِّينَ مَنْهَجٌ إلهيٌّ للحياةِ البَشَرِيَّةِ. يَتِمُّ تَحْقيقُهُ في حَياةِ البَشَرِ بِجُهْدِ البَشَرِ أَنفُسِهِمْ في حُدودِ طاقَتِهِمُ البَشَرِيَّةِ. وفي حُدودِ الواقِعِ المادِّيِّ للحَياةِ الإنسانِيَّةِ في كُلِّ بيئَةٍ، ويَبْدَأُ العَمَلُ من النُّقْطَةِ الَّتي يكونُ البَشَرُ عِنْدَها حينَما يتسَلَّمُ مقالِيدَهُمْ. ويَسِيرُ بِهِمْ إلىٰ نِهايَةِ الطَّرِيقِ في حُدودِ طَاقَتِهِمُ البَشَرِيَّةِ، وبِقَدْرِ ما يَبْذُلُونَهُ منْ هذِهِ الطَّاقَةِ.

وميزَتُهُ الأَساسِيَّةُ: أَنَّهُ لا يغْفُلُ لحظةً، في أَيَّةِ خِطَّةٍ وفي أَيَّةِ خَطْوَةٍ عن فِطْرَةِ الإنسانِ وحُدودِ طاقتِهِ، وواقِعِ حَياتِهِ المادِّيِّ أَيضًا. وأنَّه ـ في الوقت ذاته ـ يبلُغُ به ـ كما تحقَّقَ ذلك فِعْلًا في بعضِ الفَتَراتِ، وكَما يُمكِنُ أَن يتحقَّقَ دائِمًا كُلَّما بُذِلَتْ مُحَاوَلَةٌ جادَّةٌ ـ إلىٰ ما لم يبْلُغْهُ أَيُّ مَنْهَجٍ آخَرَ من صُنعِ البَشَرِ على الإِطْلَاقِ. وفي يُسْرٍ وراحَةٍ وطُمَأْنِينَةٍ واعْتِدَالٍ.

ولَكِنَّ الخَطَأَ كُلَّه كما تقدَّمَ يَنْشَأُ من عَدَمِ إِدْرَاكِ طَبِيعَةِ هذا الدِّينِ أَوْ مِنْ نِسْيانِها، ومِنِ انْتِظَارِ الخَوارِقِ المَـجْهُولَةِ الأَسْبَابِ علىٰ يَديهِ.. تلك الخَوارِقِ الَّتي تُبَدِّلُ فِطْرَةَ الإنسانِ، ولا تُبالي طاقاتِه المَـحْدُودَةَ، ولا تحفِلُ واقِعَه المادِّيَّ البيئِيَّ!

أَليسَ هو مِنْ عِنْدِ الله؟ أَليسَ اللهُ قادِرًا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ؟ فلِماذا إذنْ يعمَلُ هذا الدِّينُ ـ فقط ـ في حُدودِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ المَـحْدُودَةِ؟ وتتَأَثَّرُ نَتَائِجُ عَمَلِهِ بالضَّعْفِ البَشَرِيِّ؟ بل لماذا يَحْتَاجُ أَصْلًا إلى الجُهْدِ الْبَشَرِيِّ؟ ثمَّ.. لماذا لا يَنْتَصِرُ دائمًا، ولا يَنْتَصِرُ أَصْحَابُهُ دَائِمًا؟ لماذا تُغَلَّبُ ثَقَلَةُ الضَّعْفِ والشَّهَواتِ والواقِعِ المَـادِّيِّ علىٰ رَفْرَفَتِهِ وشَفَافِيَّتِهِ وانطِلَاقَهِ أَحْيانًا؟ ولماذا يُغَلَّبُ أَهلُ البَاطِلِ علىٰ أَصْحَابِهِ ـ وهُمْ أَهْلُ الحَقِّ ـ أَحْيَانًا!!

وكُلُّهَا كما تَرىٰ أَسْئِلَةٌ وشُبُهاتٌ، تنبَعُ ابتِداءً من عَدَمِ إِدْراكِ الحَقِيقَةِ الأَوَّلِيَّةِ لطبيعةِ هذا الدِّينِ وطَرِيقَتِهِ.. أَو مِنْ نِسْيَانِهَا!

إِنَّ اللهَ قادِرٌ طَبْعًا عَلَىٰ تَبْدِيلِ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ، عَنْ طَرِيقِ هَذَا الدِّينِ أَوْ عنْ غَيْرِ طَرِيقِهِ.

ولكنَّهُ ـ سبحانَه ـ شاء أَن يخلُقَ الإِنسانَ بهذه الفِطْرَةِ لِحِكْمَةٍ يعلَمُها، وشاءَ أَنْ يَجْعلَ الهُدَىٰ ثَمرةً للجُهْدِ والرَّغْبَةِ في الهُدىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وشاءَ أَنْ تَعْمَلَ فِطْرَةُ الإنسانِ دائِمًا، ولا تُمْحَىٰ ولا تُعَطَّلُ: ﴿وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ١٠].

وشاءَ أَن يتِمَّ تحقيقُ مَنْهَجِه الإلهِيِّ للحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الْجُهْدِ البَشَرِيِّ، وفي حُدُودِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وشَاءَ أَنْ يَبْلُغَ الإنسانُ من هذا كُلِّهِ بِقَدْرِ ما يَبْذُلُ من الجُهْدِ،

وما يُـنْفِقُ منَ الطَّاقَةِ، وما يَصْبِرُ على الإِبْتِلَاءِ في تَحْقِيقِ المـَنْهَجِ الإِلَهِيِّ القَوِيمِ، وفي دَفْعِ الفَسَادِ عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ الحَيَاةِ مـنْ حَـوْلِهِ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ ٣].

ولَيْسَ لِأَحَدٍ منْ خَلْقِ الله أَن يَسْأَلَهُ ـ سُبحانَه ـ لماذا شاءَ هذا كُلَّهُ علىٰ هذا النَّحْوِ الَّذِي أَرَادَهُ فَكَانَ. لَيْسَ لِأَحَدٍ منْ خَلْقِهِ أَنْ يَسْأَلَه سُبْحَانَه ما دام أَنَّ أَحَدًا منْ خَلْقِهِ لَيْسَ إِلَهًا، ولَيْسَ لَدَيْهِ العِلْمُ، ولا إِمْكَانُ العِلْمِ بِالنِّظَامِ الكُلِّيِّ لهذا الكَوْنِ، ومُقْتَضَيَاتِ هَذَا النِّظَامِ في طَبِيعَةِ كُلِّ كَائِنٍ في هَذَا الوُجُودِ.

ولِمَـاذا؟ ـ فـي هـذا المَقَـامِ ـ سُـؤَالٌ لا يَسْـأَلُهُ مُؤْمِـنٌ جَـادٌّ، ولا يَسْـأَلُهُ مُلْحِـدٌ جَادٌّ.. المـُـؤْمِنُ لا يَسْـأَلُهُ؛ لأَنَّـه أَكْثَـرُ أَدَبًا معَ الله الَّـذي يَعْرِفُـه بذاتـِهِ وصفاتِـه وخَصَائِصِـهِ، وأَكْثَـرُ معرِفَـةً بطَبيعـةِ إدراكِهِ الْبَشَـرِيِّ وحُـدُودِهِ، وأَنَّهُ لـم يُهَيَّأْ للعَمَلِ في هذا المـَـجَالِ.. والمـُـلْحِدُ الجـادُّ لا يَسْـأَلُهُ؛ لأَنَّـهُ لا يَعْتَـرِفُ بـالله ابْتِـدَاءً، فـإنْ هو اعْتَـرَفَ بأُلُوهِيَّتِـهِ عَـرَفَ معهـا أَنَّ هـذا شَـأْنُهُ ـ سـبحانَه ـ ومُقْتَضَى أُلُوهِيَّتِـهِ، وأَنَّـهُ: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبيـاء: ٢٣]؛ لأَنَّهُ وحـدَه المـُـهَيمِنُ العَلِيمُ بمـا يَفْعَلُ.



ولَكِنَّهُ سُؤَالٌ قَدْ يَسْأَلُهُ هَازِلٌ مَائِعٌ، لا هُوَ مُؤْمِنٌ جَادٌّ، وَلَا هُوَ مُلْحِدٌ جَادٌّ، ومِنْ ثَمَّ لا يَجُوزُ الِاحْتِفَالُ بِهِ، ولا أَخْذُهُ مَأْخَذَ الجِدِّ.. وقد يَسْأَلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الأُلوهِيَّةِ وخَصَائِصِهَا. فالسَّبِيلُ لِتَعْلِيم هذا الجاهِلِ لَيْسَ هُوَ الإِجَابَةَ المُبَاشِرَةَ. إنَّما هُوَ تَعْرِيفُهُ بِحَقِيقَةِ الأُلُوهِيَّةِ وخَصَائِصِهَا.. حَتَّىٰ يَعْرِفَها ويُسلِّمَ بها فهو مُؤْمِنٌ. أَو يَجْحَدَها ويُنْكِرَها فهو مُلْحِدٌ.. وبهذا يَنْتَهِي الجَدَلُ. إلَّا أَنْ يَكُونَ مِرَاءً! والمُسْلِمُ مَنْهِيٌّ عَنِ الْمُضِيِّ في الجَدَلِ حَتَّىٰ يَكُونَ مِرَاءً!

والخُلَاصَةُ الَّتِي نَنْتَهِي إليها مِنْ هَذا الِاسْتِطْرَادِ في هذِه الفِقْرَةِ:
هي أَنَّه لَيْسَ لِأَحَدٍ من خَلْقِ الله أَنْ يَسْأَلَهُ ـ سبحانَه ـ لماذا شاءَ أَن يخْلُقَ «**الإنسانَ**» بهذِهِ الفِطْرَةِ؟ ولماذا شاءَ أَن يُبْقِي فِطْرَتَه هذِه عامِلَةً لا تُمْحَىٰ ولا تُعَطَّلُ؟ ولماذا شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ المَنْهَجَ الإِلَهِيَّ لِحَيَاتِهِ البَشَرِيَّةِ يتحقَّقُ عن طَرِيقِ الجُهْدِ البَشَرِيِّ، وفي حُدُودِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ، والواقِعِ المادِّيِّ لِحَيَاتِهِ؟ ولَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْعَلَهُ يتمُّ بوَسِيلَةٍ خارِقَةٍ، وبِأَسْبَابٍ مُبْهَمَةٍ غامِضَةٍ!

ولكنْ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُدْرِكَ هذِه الحَقَائِقَ ويَعْرِفَها؛ ويَراها وهي تَعْمَلُ في واقِعِ الحَياةِ البَشَرِيَّةِ. ويُفَسِّرَ أَحْدَاثَ التَّارِيخِ البَشَرِيِّ علىٰ ضَوْئِها. فيَفْقَهَ خَطَّ سَيْرِها التَّارِيخِيِّ مِنْ

ناحِيَـةٍ؛ ويَعْـرِفَ كيـفَ يُواجِـهُ هـذا الخَـطَّ ويُوَجِّهُـهُ مِـنْ ناحِيَـةٍ أُخْـرىٰ. ويَعِيـشَ مـعَ حِكْمَـةِ الله وقَـدَرِه، فيَنْطَبِـعَ بِهِمـا الاِنْطِبَـاعَ الصَّحِيـحَ مِـنْ ناحِيَـةٍ ثالِثَةٍ.

هذا المَنْهَجُ الإِلَهِيُّ الَّذي يُمَثِّلُهُ «**الإسلامُ**» في صُورَتِه النِّهائِيَّةِ، كما جاءَ بها مُحَمَّدٌ ﷺ لا يتحقَّقُ في الأَرضِ، وفي دُنْيا النَّاسِ، بمُجَرَّدِ تَنَزُّلِهِ من عِنْدِ الله. لا يتحقَّقُ بِكَلِمَةِ: «**كُنْ**» الإِلَهِيَّةِ مُبَاشَرَةً لَحْظَةَ تَنَزُّلِه. ولا يتحقَّقُ بمُجَرَّدِ إبلاغِهِ للنَّاسِ وَبَيَانِه. ولا يتحقَّقُ بالقَهْرِ الإِلَهِيِّ علىٰ نَحْوِ ما يَمْضِي نامُوسُهُ في دَوْرَةِ الفَلَكِ وسَيْرِ الكَواكِبِ.

إِنَّما يتحقَّقُ بأَنْ تَحْمِلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ البَشَرِ تُؤْمِنُ بِهِ إيمانًا كَامِلًا، وتَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ ـ بِقَدْرِ طَاقَتِهَا ـ وتَجْتَهِدُ لتَحْقِيقِهِ في قُلُوبِ الآخَرِينَ وفي حَيَاتِهِمْ كَذَلِكَ. وتُجَاهِدُ لِهَذِهِ الغايَةِ بكُلِّ ما تَمْلِكُ.. تُجَاهِدُ الضَّعْفَ البَشَرِيَّ والهَوَى البَشَرِيَّ فـي داخِلِ النُّفُوسِ. وتُجَاهِدُ الَّذينَ يَدْفَعُهُمُ الضَّعْفُ والهَوَىٰ للوُقُوفِ في وَجْهِ الهُدَىٰ.. وتَبْلُغُ ـ بعدَ ذلكَ كُلِّهِ ـ مِنْ تَحْقِيقِ هذا المـَنْهَجِ، إلى الحَدِّ الَّذي تُطِيقُهُ فِطْرَةُ البَشَرِ، والَّذي يُهَيِّئُهُ لَهُمْ واقِعُهُمُ المادِّيُّ. علىٰ أَن تَبْدَأَ بالبَشَرِ مِنَ النُّقْطَةِ الَّتي



هُمْ فيها فِعْلًا. ولا تُغْفِلُ واقِعَهُمْ، ومُقْتَضَياتِهِ في سَيْرِ وتَتَابُعِ مَرَاحِلِ هذا المـَنْهَجِ الإِلَهِيِّ.. ثُمَّ تَنْتَصِرُ هذه الجَمَاعَةُ علىٰ نَفْسِهَا وعلىٰ نُفُوسِ النَّاسِ مَعَها تَارَةً. وتَنْهَزِمُ في المـَعْرَكَةِ مَعَ نَفْسِهَا أَوْ مع نُفُوسِ النَّاسِ تَارَةً.. بِقَدْرِ ما تَبْذُلُ مِنَ الجُهْدِ، وبقَدْرِ ما تَتَّخِذُ مِنَ الوَسَائِلِ المـُنَاسِبَةِ للزَّمانِ ولِمُقْتَضَياتِ الأَحْوَالِ. وقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.. بِمِقْدَارِ ما تُمَثِّلُ هي ذاتُهَا من حَقِيقَةِ هذا المـَنْهَجِ؛ ومِنْ تَرْجَمَتِهِ تَرْجَمَةً عَمَلِيَّةً في واقِعِهَا وسُلُوكِهَا الذَّاتِيِّ.

هذه هي طَبِيعَةُ هذا الدِّينِ وطَرِيقَتُهُ، وهذه هي خِطَّتُهُ الحَرَكِيَّةُ ووَسِيلَتُه.. وهذه هي الحَقِيقَةُ الَّتي شاءَ اللهُ أَنْ يُعَلِّمَهَا للجَمَاعَةِ المـُسْلِمَةِ وهو يَقولُ لها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذه هي الحَقِيقَةُ الَّتي شاءَ اللهُ أَنْ يُعَلِّمَهَا للجَمَاعَةِ المـُسْلِمَةِ في غَزْوَةِ أُحُدٍ حينما قَصَّرَتْ في تَمْثِيلِ حَقِيقَةِ هذا الدِّينِ في ذَوَاتِ أَنْفُسِهَا في بَعْضِ مَوَاقِفِ الغَزْوَةِ. وحينما قَصَّرَتْ في اتِّخَاذِ الوَسَائِلِ

المـُنَاسِبَةِ في بَعْضِ مَوَاقِفِهَا. وحينما غَفَلَتْ عن هذه الحَقِيقَةِ الأَوَّلِيَّةِ أَو نَسِيَتْهَا؛ وفَهِمَتْ أَنَّ مِنْ مُقْتَضَىٰ كَوْنِهَا مُسْلِمَةً أَنْ تَنْتَصِرَ حَتْمًا! فقالَ لها اللهُ ـ سبحانَه :

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقال لها: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ولَقَدْ تَعَلَّمَتِ الجَمَاعَةُ المـُسْلِمَةُ هذهِ الحَقِيقَةَ في هذه الغَزْوَةِ. لا بِالكَلَامِ ولا بِالعِتَابِ؛ ولَكِنْ تعلَّمَتْها مع هذا بالدِّمَاءِ وبِالآلَامِ، ودَفَعَتْ ثمَنَها غَالِيًا: هَزِيمَةً بَعْدَ نَصْرٍ. وخَسَارَةً بعد غُنْمٍ، وجِراحًا لم تَكَدْ تَدَعُ أَحَدًا مُعَافىٰ. وشُهَداءَ كِرامًا فيهم سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ رضي الله عنه وأَغْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وأَشَدُّ وَقْعًا على الجَمَاعَةِ المـُسْلِمَةِ كُلِّهَا: جُرْحُ رَسُولِ الله ﷺ وشَجُّ وَجْهِهِ الكَرِيمِ، وكَسْرُ رباعِيَّتِهِ في فَمِهِ، ووُقُوعُهُ لِجَنْبِهِ في الحَفْرِ الَّتي حَفَرَهَا أَبو عمروٍ الفَاسِقُ حَلِيفُ قُرَيْشٍ مَكِيدَةً للمُسْلِمِينَ. وجُهْدُ المـُشْرِكِينَ لَهُ ﷺ وهُمْ يُطَارِدُونَهُ، وهو مُفْرَدٌ في

نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتشْهدُوا واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ وهُمْ يَذُودُونَ عَنْهُ؛ ويُتَرِّسُ أَحَدُهُمْ ـ أَبُو دُجَانَةَ ـ بِظَهْرِهِ عَلَيْهِ يَقِيهِ نَبْلَ الْمُشْرِكِينَ، والنَّبْلُ يَقَعُ في ظَهْرِهِ فلَا يَتَحَرَّكُ.. حتَّىٰ ثَابَ إِلَيْهِ المؤمِنُونَ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ وحَيْرَتِهِمْ، وهُمْ يَتَلَقَّوْنَ هذا الدَّرْسَ الشَّاقَّ المـَرِيرَ!

علىٰ أَنَّه منَ الملاحَظِ الوَاضِحِ أَنْ تُرِكَ المَنْهَجُ الإلِهِيُّ للجُهْدِ البَشَرِيِّ، يُتَولَّىٰ تَحْقِيقُهُ في حُدُودِ الطَّاقةِ البَشَرِيَّةِ، يُصْلِحُ النُّفُوسَ البَشَرِيَّةَ، ويُصْلِحُ الحَيَاةَ البَشَرِيَّةَ.. نَقُولُ هذا لا لِنُعَلِّلَ بِهِ مَشِيئَةَ الله ـ سبحانَه ـ في جَعْلِ الأَمْرِ علىٰ ما جَعَلَهُ. ولكنْ لِنُسَجِّلَ ـ فقطْ ـ مُلَاحَظَةً واقِعِيَّةً لآثارِ هذه المـَشِيئَةِ في حَيَاةِ العِبَادِ.

۞ **ذلك أَنَّ حَقِيقَةَ الإِيمانِ لا يَتِمُّ تَمَامُهَا في قَلْبٍ حتَّىٰ يَتَعَرَّضَ لمجاهَدَةِ النَّاسِ في أَمْرِ هذا الإيمانِ. مُجَاهَدَتِهُمْ بالقَلْبِ** بكراهةِ باطِلِهم وجاهِلِيَّتِهِم، والعَزْمِ علىٰ نَقْلِهم منها إلى الحَقِّ والإسلامِ. ومُجَاهَدَتِهُمْ باللِّسانِ بالتَّبليغِ والبَيانِ. ورَفْضِ باطِلِهِمُ الزَّائِفِ، وتَقْرِيرِ الحَقِّ الَّذي جاءَ به الإسلامُ. **ومُجَاهَدَتِهِمْ باليَدِ** بِالدَّفْعِ والإِزَالَةِ من طَرِيقِ الهُدىٰ حين يَعْتَرِضُونَهُ بالقُوَّةِ البَاغِيَةِ والبَطْشِ الغَشُومِ!.. وحتَّىٰ يَتَعَرَّضَ في تلك المـُجَاهَدَةِ لِلابْتِلَاءِ والأَذَىٰ، والصَّبْرِ على الِابْتِلَاءِ

والأَذَىٰ، والصَّبْرِ على الهَزِيمَةِ، والصَّبْرِ على النَّصْرِ أَيْضًا، فالصَّبْرُ على النَّصْرِ أَشَقُّ مِنَ الصَّبْرِ على الهَزِيمَةِ. ثمَّ يَثْبُتُ ولا يَرْتَابُ، ويَسْتَقِيمُ ولا يَتَلَفَّتُ، ويَمْضِي في طَرِيقِ الإيمانِ راشِدًا صَاعِدًا.

۞ **حَقِيقَةُ الإيمانِ لا يَتِمُّ تَمَامُهَا في قَلْبٍ حتَّىٰ يتَعَرَّضَ لمُجَاهَدَةِ النَّاسِ في أَمْرِ هذا الإيمانِ؛** لأَنَّهُ يُجاهِدُ نَفْسَهُ كَذَلِكَ في أَثْنَاءِ مُجَاهَدَتِهِ للنَّاسِ، وتَتَفَتَّحُ لهُ في الإيمانِ آفاقٌ لم تَكُنْ لِتَتَفَتَّحَ لَهُ أَبَدًا وهو قاعِدٌ آمِنٌ سَاكِنٌ، وتَتَبَيَّنُ له حَقَائِقُ في النَّاسِ وفي الحَيَاةِ لم تَكُنْ لِتَتَبَيَّنَ له أَبَدًا بِغَيْرِ هذه الوَسِيلَةِ. ويَبْلُغُ هو بِنَفْسِهِ وبِمَشَاعِرِهِ وتَصَوُّراتِهِ، وبِعَاداتِهِ وطِبَاعِهِ وانفِعَالَاتِهِ واسْتِجَابَاتِهِ، ما لم يَكُنْ لِيَبْلُغَهُ أَبَدًا بِدُونِ هذه التَّجْرِبَةِ الشَّاقَّةِ العَسِيرَةِ.

وهذا بَعْضُ ما يُشِيرُ إليه قولُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأَوَّلُ ما تَفْسُدُ: فَسَادُ النُّفُوسِ بالرُّكُودِ الَّذي تَأْسَنُ معه الرُّوحُ؛ وتَسْتَرْخِي معه الهِمَّةُ، ويُتْلِفُهَا الرَّخَاءُ والطَّرَاوَةُ، ثُمَّ تَأْسَنُ الحَيَاةُ كُلُّهَا بالرُّكُودِ، أَو بالحَرَكَةِ في مَجَالِ الشَّهَوَاتِ وَحْدَهَا. كما يَقَعُ للأُمَمِ حين تُبْتَلَىٰ بالرَّخَاءِ!



فهَذِهِ كَذَلِكَ من الفِطْرَةِ الَّتي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، لقد جُعِلَ صَلَاحُ هَذِهِ الفِطْرَةِ في المُـجَاهَدَةِ لِإقْرارِ مَنْهَجِ الله للحَياةِ البَشَرِيَّةِ، عَنْ طَرِيقِ الجُهْدِ البَشَرِيِّ، وفي حُدُودِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ كَذَلِكَ.

ثمَّ إنَّ هذه المُجَاهَدَةَ وما يُصاحِبُها مِنَ الابْتِلَاءِ، هي الوَسِيلَةُ العَمَلِيَّةُ لتَمْحِيصِ الصُّفُوفِ ـ بعدَ تَمْحِيصِ النُّفُوسِ ـ ولِتَنْقِيَةِ الجَمَاعَةِ مِن المُعَطِّلينَ والمعَوِّقينَ والمُرْجِفِينَ، ومِنْ ضِعَافِ النُّفُوسِ والقُلُوبِ، ومِنَ المـُخَادِعِينَ والـمُنافِقِينَ والمـُرائِينَ.. وهذه هي الحَقِيقَةُ الَّتي شاءَ اللهُ أَنْ يُعَلِّمَهَا للجَمَاعَةِ المـُسْلِمَةِ وهي تتعَرَّضُ لِلامْتِحَانِ؛ وتَتَعَرَّضُ لِلابْتِلَاءِ؛ وتَتكَشَّفُ فيها خَفَايا النُّفُوسِ، كَما تَتَمَيَّزُ فيها الصُّفُوفُ. تحتَ مَطَارِقِ الِابْتِلَاءِ ومَشَقَّةِ التَّجْرِبَةِ، ومَرارَةِ الآلَامِ.

وهذه هي الحَقِيقَةُ الَّتي شاءَ اللهُ أَنْ يُعَلِّمَها للجَماعَةِ المـُسْلِمَةِ، وهو يُعَقِّبُ علىٰ أَحْداثِ الغَزْوَةِ، فيَقولُ لها، رَدًّا علىٰ سُؤالِ المـُسْلِمِينَ:

﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ثمَّ يعقِّبُ علىٰ هذا بقوله: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٦]. ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ١٤١]..

كُلُّ ذلك لِيَسْتَقِرَّ في حِسِّهِمْ أَنَّه مع أَنَّ ما أَصابَهُمْ كانَ بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ في تَمْثِيلِ حَقِيقَةِ الإيمانِ كَامِلَةً في مَشَاعِرِهِمْ وتَصَرُّفاتِهِمْ في الغَزْوَةِ.. فإنَّهُ كذلكَ كانَ لِخَيْرِهِمْ في النِّهَايَةِ بِفَضْلِ الله عَلَيْهِمْ، وتَجَاوُزِه عَنْ تَقْصِيرِهِمْ؛ واتِّخَاذِ نَتَائِجِهِ مادَّةً لتعليمِهِمْ وتَمْحِيصِهِمْ وتَطْهِيرِهِمْ، وتَمْيِيزِ صُفُوفِهِمْ.. وكُلُّهُ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ولحياتِهِمْ في نِهايةِ المَطافِ..

ولا يَتِمُّ تمامُ القَوْلِ في طَبيعةِ هذا الدِّينِ وطَرِيقتِهِ، حتَّىٰ نُضِيفَ إلىٰ تلك الحَقيقةِ الَّتي نرجو أَنْ نكونَ قد كَشَفْنا عنها في هذا البَيانِ.. تَكْمِلَةً ضَرُورِيَّةً لها لا بُدَّ مِن بيانِها كذلكَ:

إنَّ كونَ هذا المـَنْهَجِ الإلَهِيِّ مَتْروكًا تحقِيقُه للجُهْدِ البَشَرِيِّ في حُدودِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ، وفي حُدودِ الواقِعِ المادِّيِّ للحَياةِ الإنسانيَّةِ في شَتَّى المـَدارِجِ، وشَتَّى البِيئاتِ.. لا يَعْني اسْتِقْلالَ الإنسانِ نِهائِيًّا بهذا الأَمرِ؛ وانقِطاعَهُ عن قدَر الله وتَدْبيرِهِ ومَدَدِه وعَوْنِه وتوفيقِه وتيسيرِه.. فتصوُّرُ الأَمرِ علىٰ هذا النَّحْوِ مُخالِفٌ في أُصُولِهِ لطَبيعَةِ التَّصَوُّرِ الإسلاميِّ.

ولقد بيَّنا فيما سَلَفَ أَنَّ اللهَ ـ سبحانَه ـ يُساعِدُ مَنْ يُجاهِدُ للهُدىٰ:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].. وأنَّه يُغيِّرُ حالَ النَّاسِ حين يُغَيِّرونَ ما بأَنفسِهم، وأنَّه لا يُغيِّرُ ما بِهم حتَّىٰ يُغَيِّروا



ما بأنفسِهِمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذانِ النَّصَّانِ يُوَضِّحانِ لنا العَلاقَةَ بين الجُهْدِ البَشَرِيِّ الَّذي يبذُلُه النَّاسُ، وعَوْنِ الله ومَدَدِه الَّذي يُسْعِفُهُم بِه؛ فيَبْلُغُونَ به ما يُجاهِدونَ فيه من الخَيْرِ والهُدىٰ والصَّلاحِ والفَلَاحِ.

فإِرادةُ الله هيَ الفَاعِلَةُ في النِّهَايَةِ، وبدونها لا يَبْلُغُ **«الإنسانُ»** بذاته شَيْئًا، ولَكِنَّ هذه الإرادَةَ تُعِينُ مَنْ يعرِفُ طَريقَها، ويَسْتَمِدُّ عَوْنَها، ويُجاهِدُ في الله ليَبْلُغَ رِضاهُ.

وقَدَرُ الله مع ذلك كُلِّهِ هو الَّذي يُحِيطُ بالنَّاسِ والأَحْدَاثِ، وهو الَّذي يَتِمُّ وِفْقَ ما يَتِمُّ منِ ابْتِلاءٍ؛ ومنْ خَيْرٍ يُصِيبُه النَّاجحونَ في هذا الإِبْتلاءِ.

وهذِهِ هي الحَقيقةُ الَّتي شاءَ الله ـ سبحانَه ـ أَنْ يُعَلِّمَها للجَمَاعَةِ المسْلِمَةِ. وهو يُبَيِّنُ لها في التَّعقِيبِ علىٰ غَزْوةِ أُحُدٍ أَسْبابَ النَّصْرِ وأَسْبابَ الهَزيمَةِ ـ من عَمِلها ـ ثمَّ يَكْشِفُ لها عن حِكْمَةِ الله مِنْ وراءِ الابتلاءِ كُلِّهِ، ومِنْ وراءِ النَّصرِ والهَزيمَةِ: وعن تَدْبيرِه كذلك ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وليُعَرِّفَهُم سُنَّتَهُ الشَّامِلَةَ. ومَرَدُّهَا في النِّهايَةِ إلىٰ مَشِيئَتِهِ الطَّلِيقَةِ وقَدَرِهِ النَّافِذِ مِنْ وَراءِ الأَسْبَابِ والوَقَائِعِ:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[آل عمران: ١٤٠ ١٤١].

وإذنْ، فهو في النِّهَايَةِ تَدْبيرُ الله ومَشِيئَتُهُ وقَدَرُهُ؛ ليَتِمَّ ما يُرِيدُهُ مِنْ وراءِ الأَسْبَاب والأَحْدَاث. وهو الأَمْرُ الَّذي لا يُسْأَلُ عنه ـ سبحانَه ـ لأَنَّهُ شَأْنُهُ الإلَهِيُّ الَّذي لا يُسْأَلُ عنه.. وهذه هي حَقِيقَةُ الإيمانِ الكُبْرى الَّتي لا يَتِمُّ في النَّفْسِ إلَّا باستِقْرَارِها فيها، واطْمِئْنانِها إليها.. وهي التَّكْمِلَةُ الَّتي لا بُدَّ منها لِما قَرَّرْناهُ في هذا الفَصْلِ عن طَبِيعَةِ هذا الدِّينِ وطَرِيقَتِهِ.. بلا تَعارُضٍ بَيْنَ طَرَفَيْ هذه الحَقِيقَةِ في حِسِّ المـُسْلِمِ، الَّذي يَتَذَوَّقُ قَلْبُهُ حَقِيقَةَ هذا الدِّينِ، كَما أَنْزَلها الله، ولا يُعارِضُها بتَصَوُّراتٍ ومُقَرَّراتٍ ليستْ مُسْتَقاةً مِنْ كِتابِ الله..





مَنْهَجٌ مُتفرِّد

والآنَ يَقُولُ قَائِلٌ:

إذا كانَ الإسلامُ، وهو مَنْهَجُ الله للحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ، لا يتحقَّقُ في الأَرضِ وفي دُنيا النَّاسِ، إِلَّا بالجُهْدِ البَشَرِيِّ، وفي حُدُودِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ، وفي حُدُودِ الواقِعِ المادِّيِّ للحَيَاةِ الإنسانِيَّةِ في البِيئاتِ المُخْتلِفَةِ.. فما مِيزَتُه إذنْ على المَناهِجِ البَشَرِيَّةِ، الَّتي يضَعُهَا البَشَرُ لأَنفسِهِمْ، ويَبْلُغُونَ منها ما يبلُغُه جُهْدُهُمْ، في حُدُودِ طاقَتِهِمْ وواقِعِهِم؟

ولماذا يجبُ أَن نُحاوِلَ تَحْقِيقَ ذلك المـَنْهَجِ، وهو يَحْتاجُ إِلى الجُهْدِ البَشَرِيِّ ككُلِّ مَنْهَجٍ؟ فلا يتحقَّقُ منه شَيْءٌ بمُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ، ولا بِقَهْرٍ إِلِهِّي مُلْزِمٍ؟ وهو يتحقَّقُ في حَياةِ النَّاسِ، في حُدُودِ فِطْرَتِهِمُ البَشَرِيَّةِ، وطَاقَتِهِمُ العَادِيَّةِ، وأَحْوالِهِمُ الواقعِيَّةِ؟!



۞ **ونحن مُلْزَمونَ** بمُحَاولةِ تحقيقِ ذلك الـمَنْهَجِ ابْتِداءً لنُحَقِّقَ لأَنفسِنا صِفةَ الإِسْلامِ، فرُكْنُ الإسلامِ الأَوَّلُ: أَنْ نَشْهَدَ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأَنَّ محمدًا رسولُ الله..

وشَهادةُ **أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ**، معناها القَرِيبُ: إِفْرادُ الله ـ سُبحانَه ـ بالأُلوهِيَّةِ، وعدمُ إشراكِ أَحَدٍ من خَلْقِهِ معه في خاصِّيَّةٍ واحِدَةٍ من خصائِصِها.. وأَوْلَىٰ خصائصِ الأُلوهِيَّةِ: حَقُّ الحاكِمِيَّةِ المُـطْلَقَةِ، الَّذي يَنْشَأُ عنه حَقُّ التَّشْرِيعِ للعِبادِ، وحَقُّ وَضْعِ المناهِجِ لِحَياتِهِمْ؛ وحَقُّ وَضْعِ القِيَمِ الَّتي تَقُومُ عليها هذه الحَياةُ، فشَهَادَةُ «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله» لا تَقومُ ولا تتحقَّقُ إلَّا بالِاعْتِرافِ بأَنَّ لله وحدَهُ حَقَّ وَضْعِ المَنْهَجِ الَّذي تَجْري عليه الحياةُ البَشَرِيَّةُ؛ وإلَّا بمُحَاوَلَةِ تَحْقِيقِ ذلك الـمَنْهَجِ في حياةِ البَشَرِ، دُونَ سِواهُ.. وكُلُّ مَن ادَّعَىٰ لِنَفْسِه حَقَّ وَضْعِ مَنْهَجٍ لحياةِ جَمَاعَةٍ من النَّاسِ، فقد ادَّعىٰ حَقَّ الأُلوهِيَّةِ عليهم، بادِّعائِه أَكْبَرَ خَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ، وكُلُّ مَنْ أَقَرَّهُ منهم علىٰ هذا الِادِّعَاءِ فقدِ اتَّخَذَهُ إلهًا من دُونِ الله، بالِاعْترافِ له بأَكبرِ خَصائصِ الأُلوهِيَّةِ..

وشهادةُ أَنَّ محمدًا رسولُ الله معناها القَريبُ: التَّصْدِيقُ بأَنَّ هذا المَنْهَجَ الَّذي بلَّغه لنا من الله، هو حَقًّا مَنْهَجُ الله للحياةِ البَشَرِيَّةِ،

وهو وحدَه المـَنْهَجُ الَّذي نحن مُلْزَمونَ بتَحْقِيقِه في حَياتِنَا وفي حَياةِ البَشَرِ جميعًا.

۞ **ومن ثَمَّ فنحن مُلْزَمونَ** بمُحَاوَلَةِ تَحْقِيقِ ذلك المَنْهَجِ، لنُحَقِّقَ لأَنفُسِنا صِفَةَ الإسلام الَّتي ندَّعِيها. وهي لا تتَحَقَّقُ إلَّا بشَهادةِ أَن لا إله إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسول الله. وهذه الشَّهَادَةُ لا تَقُومُ إلَّا بإِفْرادِ الله بالأُلوهِيَّةِ. إِفْرَادِهِ بحَقِّ وَضْعِ مَنْهَجِ الحَياةِ. ومُحاوَلَةُ تَحْقِيقِ ذلك المَنْهَجِ الَّذي جاءَنا به محمَّد ﷺ من عند الله.

۞ **ونحن مُلْزَمونَ** بمُحاوَلَةِ تَحْقِيقِ ذلك المـَنْهَجِ لأَسبابٍ تَتَعَلَّقُ بالمَنْهَجِ ذاتِه، فهو ـ وحدَه ـ المَنْهَجُ الَّذي يحقِّقُ كرامةَ «**الإنسان**» ويَمْنَحُهُ الحُرِّيَّةَ الحقيقِيَّةَ، ويُطْلِقُهُ من العُبوديَّةِ.. هو ـ وحدَه ـ الَّذي يحقِّقُ له التَّحَرُّرَ الكاملَ الشَّامِلَ المـُطلَقَ ـ في حُدودِ إنسانيَّتِهِ وعُبودِيَّتِه لله التَّحرُّرَ منَ العُبودِيَّةِ للنَّاسِ بالعُبودِيَّةِ لله رَبِّ النَّاسِ..

وما من مَنْهَجٍ آخَرَ في الأَرض يحقِّقُ هذه الخاصِّيَّةَ إلَّا الإسلامُ.. ذلك أَنَّهُ برَبَّانِيَّتِه الَّتي تُفْرِدُ اللهَ ـ سبحانَه ـ بالأُلوهِيَّةِ، ومِن ثَمَّ تُفْرِدُه ـ سبحانَه ـ بحقِّ الحَاكِمِيَّةِ الَّتِي تُشَرِّعُ للنَّاسِ مَنْهَجَ



حَياتِهِمْ.. يَجْعَلُ للنَّاسِ إلَهًا واحِدًا، وسَيِّدًا واحِدًا، ويمنعُ أَنْ يكونَ بعضُهم آلِهةً لبعضٍ؛ لهُم حَقُّ الحاكمِيَّةِ بعضُهُمْ علىٰ بَعْضٍ؛ ولهم حَقُّ السِّيَادَةِ بعضُهم علىٰ بَعْضٍ، في مُقَابِلِ العُبودِيَّةِ الَّتي يتَّسِمُ بها مَنْ يُقِرُّونَ لهؤلاء الآلهةِ بخَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ!

وفي هذه الخاصِّيَّةِ يتفرَّدُ المنهجُ الإلهيُّ. لا باللَّفْظِ والدَّعْوىٰ، ولكنْ بالحقيقةِ والواقعِ..ومن ثمَّ كانت دعوةُ الرُّسلِ جميعًا ـ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ هيَ إفرادُ الله بالأُلوهيَّةِ؛ وإنكارُ كلِّ خاصيَّةٍ من خصائِصِها علىٰ غيرِ الله ـ سبحانَه ـ مِن عبيدِه، الَّذين يتألَّهونَ، فيَدَّعونَ حقَّ وضعِ المناهجِ لحَياةِ عِبادِ الله؛ ويُقرُّهم علىٰ هذا الادِّعاءِ مَن لا يؤمنونَ بوَحدانيَّةِ الله!

ولقدْ قالَ اللهُ عنِ اليَهودِ والنَّصارىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:٣٢].. وهم لم يكونوا يعبدونَ الأَحْبارَ والرُّهبانَ؛ إنَّما كانوا فقطْ يُقرُّون لهم بحقِّ التَّشْريعِ لهمْ مِن دونِ الله، وبحقِّ وَضْعِ المناهجِ لحياتِهم بالتَّشرِيعِ. فقالَ اللهُ عنهم: إنَّهمُ اتَّخذوهمْ أَرْبابًا، وإنَّهم خالفوا عنْ أَمرِ الله لهمْ بالتَّوحيدِ. وإنَّهمْ مُشْركونَ..

روى الإمامُ أَحمدُ والتِّرْمِذِيُّ وابنُ جريرٍ مِن طُرُقٍ، عن عديِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه أَنَّه لمـَّا بلغتْهُ دَعوةُ رسولِ الله ﷺ فرَّ إلى الشَّامِ، وكانَ قدْ تنصَّرَ في الجاهليَّةِ. فأُسِرَتْ أُختُه وجماعةٌ من قَوْمِه. ثمَّ منَّ رسولُ الله ﷺ علىٰ أُختِه وأَعطاها، فرَجعتْ إلىٰ أَخيها، فرغَّبَتْه في الإسلامِ، وفي القُدومِ علىٰ رسولِ الله ﷺ فتَقدَّمَ عدِيٌّ إلى المدينةِ، وكانَ رئيسًا في قومِه طيئ. أَبوه حاتمٌ الطَّائِيُّ المشهورُ بالكَرَمِ، فتحدَّثَ النَّاسُ بقُدومِه. فدخلَ علىٰ رسولِ الله ﷺ ـ وفي عُنُقِ عديٍّ صَلِيبٌ من فِضَّةٍ ـ وهو يقرأُ هذه الآيـةِ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١].. قالَ: فقلتُ: إنَّهم لم يعبُدوهم، فقالَ: «**بلىٰ! إنَّهم حرَّموا عليهمُ الحلالَ، وأحلُّوا لهمُ الحرامَ، فاتَّبَعوهم، فذلك عبادتُهم إيَّاهُم!**».

وقال السُّدِّيُّ: استَنْصَحوا الرِّجالَ، ونَبَذوا كتابَ الله وراءَ ظُهورِهم. ولهذا قالَ تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]. أَي: الَّذي إذا حرَّمَ الشَّيءَ فهوَ الحرامُ، وما حلَّلهُ فهوَ الحلالُ، وما شرَعه اتُّبِعَ، وما حَكَمَ به نُفِّذَ..

والإسلامُ وحدَه هوَ الَّذي يُفْرِدُ اللهَ ـ سبحانَه ـ بالعبادةِ، حين يُفْرِدُه بالحاكمِيَّةِ وحَقِّ وَضْعِ المنهجِ لحياةِ النَّاسِ. ومِن ثَمَّ

فهو وحدَه الَّذي يُطلِقُ النَّاسَ مِنَ العُبوديَّةِ لغيرِ الله.. **ولهذا فنحنُ مُلْزَمونَ بمُحاولةِ تحقيقِ هذا المنهجِ دونَ سِواهُ!**

۞ **ونحنُ مُلْزَمونَ** بمُحاولةِ تَحقيقِ ذلك المنهجِ؛ لأنَّه ـ بربَّانيَّتِه ـ هوَ المنهجُ الوحيدُ المـُبرَّأُ مِن نتائجِ الهوى الإنسانيِّ، والضَّعْفِ الإنسانِيِّ، والرَّغْبَةِ الإنسانيَّةِ في النَّفْعِ الذَّاتِيِّ، وفي تحقيقِ ذلكَ النَّفْعِ عنْ طريقِ التَّشْرِيعِ لشخصِ المشرِّعِ، أَو لأُسرَتِه، أَو لطبَقَتِه، أَو لشَعْبِه، أَو لجنسه.. فواضعُ ذلك المنهجِ هوَ اللهُ، وهوَ ـ سبحانَه ـ ربُّ البَشَرِ أَجمعينَ، فهوَ لا يُشَرِّعُ ليُحابيَ نفسَه! ولا ليُحابِيَ طَبَقَةً منَ البَشَرِ علىٰ طَبَقَةٍ! ولا ليُحابيَ شَعْبًا علىٰ شعبٍ! ولا ليُحابيَ جِنْسًا علىٰ جنسٍ!

والتَّشْرِيعُ البَشَرِيُّ الَّذي يصنعُه فردٌ حاكمٌ، أَو أُسرةٌ حاكِمةٌ، أَو طبَقةٌ حاكمَةٌ، أَو أُمَّةٌ حاكمَةٌ، أَو جِنْسٌ حاكِمٌ.. يستحيلُ ـ بحسبِ فِطْرَةِ الإنسانِ ـ أَنْ يتجَرَّدَ مِنَ الهوىٰ، ومِنْ مُراعاةِ مصلحةِ واضعِ التَّشْريعِ.

فأَمَّا حينَ يكونُ مَنهجُ الله هوَ الَّذي يحكُمُ حياةَ البَشَرِ، فتَنْتَفِي هذهِ الصِّفةُ ويتحقَّقُ العَدْلُ الحقيقيُّ الشَّامِلُ الكامِلُ، الَّذي لا يملِكُ منهجٌ آخرُ مِن مناهجِ البَشَرِ أَن يُحقِّقَه في صورتِه هذه؛ لأنَّه ليسَ بين هذه

المناهجِ كُلِّها ما يُمكنُ أَنْ يتجرَّدَ مِنْ عواملِ الهوى الإنسانيِّ، والضَّعْفِ الإنسانيِّ، والحِرْصِ على المصلحةِ الذَّاتِيَّةِ في صُورةٍ مِنَ الصُّوَرِ.

وقد يخطُرُ لقائلٍ أَنْ يقولَ حين يَسمَعُ التَّوْجيهاتِ الرَّبَّانِيَّةَ الرَّفِيعةَ في إقرارِ هذا العَدْلِ الشَّامِلِ الكَامِلِ، الَّذي لا يتأثَّرُ بالهوىٰ، ولا يتأثَّرُ بالعَصَبيَّةِ والقَرابَةِ مِنْ مثلِ قولِه تعالىٰ للجَماعةِ المسلمةِ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

قدْ يخطُرُ لقائلٍ أَنْ يقولَ: وما هيَ الضَّماناتُ الَّتي تجعَلُ الجَماعةَ المسلِمةَ تحقِّقُ هذا العَدْلَ الَّذي يَدْعُوها اللهُ إليهِ، ويأْمرُها به؟

والضَّمانةُ الحقيقيَّةُ للمنهجِ الإسلاميِّ كُلِّهِ كامِنةٌ في ضميرِ المسلمِ؛ مُنبَعِثَةٌ مِن إيمانِه. فمتىٰ وُجِدَ الإيمانُ بهذا الدِّينِ وُجِدَتْ معه أَقوىٰ ضَماناتِه. والمسلمونَ يتعلَّمُونَ مِن دينِهم أَنَّ مُقَوِّماتِ وجودِهمْ وانتِصارِهمْ والتَّمْكِينِ لهمْ في الأَرضِ، تقومُ كلُّها على الوفاءِ بهذه التَّوْجيهاتِ؛ وإلَّا تعرَّضَ وجودُهمْ للزَّوالِ، وانقلبَ انتصارُهم هزيمةً، وذهبت ريحُهُم وذلُّوا.

وهم يسمعونَ اللهَ ـ سبحانَه ـ يقولُ لهمْ: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟



ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].. ويُوقِنون أَنَّ اللهَ ـ سبحانَه ـ لا يُحابِيهم حين يَحِيدون عن الطَّريقِ.

والجَماعَةُ المسلمةُ ضمانةٌ حقيقةٌ لتحقيقِ هذهِ التَّوَجُّهاتِ. فهيَ تقومُ علىٰ هذهِ العقيدة. وتأْخذُ نفسَها بالتزامِ ما أَلزمَها اللهُ. وترىٰ في كلِّ إهمالٍ أَو تفريطٍ نذيرًا يلحقُها كُلَّها، ولا يُصيبُ الَّذينَ ظلَموا منها خاصَّةً..

ومِن ثَمَّ نحنُ مُلْزَمونَ بتحقيقِ ذلكَ المنهجِ؛ لتحقيقِ ذلكَ العَدْلِ الشَّاملِ الكاملِ، الَّذي لا يتحقَّقُ إلَّا في ظِلِّ هذا المنهجِ المتـفَرِّدِ.

ونحن مُلْزَمونَ بمُحاولةِ تحقيقِ ذلكَ المنهجِ؛ لأَنَّه ـ وحدَه ـ المنهجُ المـبُرَّأُ مِن نتائجِ الجَهْلِ الإنسانيِّ والقُصورِ الإنسانيِّ ـ براءتُه مِن نتائجِ الضَّعْفِ البَشَرِيِّ ـ فواضِعُه هوَ خالقُ هذا الكائنِ الإنسانيِّ، العليمُ بما يُصلِحُه ويَصلُحُ له. وهو المـطَّلِعُ علىٰ خفايا تكوينِه وتركيبِه، وخفايا المـلابَساتِ الأَرضِيَّةِ والكَوْنِيَّةِ كُلِّها في مدى الحيَاةِ البَشَرِيَّةِ كذلكَ.. فإذا وضعَ له منهجًا كانَ مَلْحوظًا في هذا المنهجِ كُلُّ هذهِ العَواملِ الَّتي يستحيلُ على البشرِ أَفرادًا ومُجتمعينَ

في جِيلٍ مِنَ الأَجيالِ ـ وفي جميعِ الأَجيالِ كذلكَ ـ أَنْ يطَّلِعوا عليها؛ لأَنَّ بعضَها في حاجةٍ إلىٰ استحضارِ جميعِ التَّجارِبِ والظَّوَاهِرِ للحياةِ البَشَرِيَّةِ في جميعِ أَجيالِها السَّابِقَةِ والحاضِرَةِ والمـُستقبَلَةِ الَّتي لم توجدْ بعدُ ـ وهذا مُستَحيلٌ ـ وبعضُها في حاجةٍ إلى الاطِّلَاعِ علىٰ كُلِّ خفايا الكونِ المحيطةِ بالإنسانِ ـ وهذا مُستَحيلٌ ـ كذلكَ وذلكَ إلىٰ قُصُورِ الإدراكِ البَشَرِيِّ ذاتِه عنِ الحُكْمِ الصَّحِيحِ المـُطْلَقِ حتَّىٰ علىٰ ما يُمكِنُ أَنْ تستحضِرَ فيه التَّجَارِبُ والظَّوَاهِرُ! لأَنَّه محكومٌ بطبيعتِه الجُزْئِيَّةِ ـ غيرِ المـُطْلَقَةِ ـ ومحكومٌ بمُؤَثِّراتِ الهَوىٰ والضَّعْفِ الأُخرىٰ.. فليسَ هوَ إذنْ بالحَكَمِ في منهجٍ يُوضَعُ «للكائن الإنسانيِّ»!

ومِن ثَمَّ يقولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]. ويقولُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

والنَّاسُ كلُّهم لا يَعْلَمونَ.. لا يَعْلَمون ذلكَ العِلْمَ المـُطْلَقَ، الَّذي يحتاجُ إليه وضعُ مَنْهَجٍ للحياةِ البَشَرِيَّةِ.. ومِنْ ثَمَّ لا يكونُ لهمْ إلَّا الهَوىٰ وإلَّا الجهلُ حينَ يتَصَدُّونَ لما ليسَ مِنْ شَأْنِهمْ، ولِمَا ليسَ مِنِ اختصاصِهم.. فوقَ ادِّعائِهم لخاصِّيَّةٍ مِنْ خَصائِصِ الأُلوهِيَّةِ.. وهوَ إثمٌ عَظِيمٌ، وشَرٌّ عظيمٌ!



۞ **ونحن مُلْزَمونَ** بمُحاوَلَةِ تحقيقِ ذلكَ المـَنْهَجِ؛ لأنَّه ـ وحدَه ـ الـمَنْهَجُ الَّذي يقومُ نظامُ الحَياةِ البَشَرِيَّةِ فيهِ علىٰ أَساسٍ منَ التَّفْسِيرِ الشَّامِلِ للوُجودِ. ولمكانِ الإنسانِ في هذا الوُجُودِ. ولغايةِ الوُجودِ الإنسانيِّ ـ كَما هيَ في الحقيقةِ ـ لا كَما يرسُمُها الجَهْلُ والضَّعْفُ والهَوى البَشَرِيُّ، في أَيِّ تصوُّرٍ آخرَ غيرِ رَبَّانِيٍّ.

وهذا هوَ الأَساسُ السَّلِيمُ القَوِيمُ الوَحِيدُ لِقِيامِ نِظامٍ للحَياةِ البَشَرِيَّةِ علىٰ جُذُورِه الطَّبِيعِيَّةِ. فكُلُّ نِظامٍ لحياةِ البَشَرِ لا يقومُ علىٰ أَساسٍ مِن هذا التَّفْسِيرِ الشَّامِلِ لا يَقومُ علىٰ جُذُورِه الطَّبِيعِيَّةِ؛ وهوَ نِظامٌ مُصْطَنَعٌ لا يُمْكِنُ أَنْ يَعيشَ طَوِيلًا. وهو مصدرُ شقاءٍ للبَشَرِ طِوالَ مُدَّةِ قِيامِهِ فيهم، حتَّىٰ تُحَطِّمَه فِطرَتُهم وترجعَهُ إلى الأَصلِ السَّلِيمِ القَويمِ.

وهذا التَّفْسِيرُ الَّذي يتضمَّنُه ذلك المـَنْهَجُ الإلهِيُّ هوَ وحدَه التَّفْسِيرُ الصَّحِيحُ؛ لأَنَّه مِنْ صُنْعِ خالقِ الوُجُودِ، وخالقِ الإنسانِ، العليمِ بحقيقةِ الوُجودِ وبحقيقةِ الإنسانِ.. وكُلُّ تفسيرٍ آخرَ للوُجودِ، ولمقامِ الإنسانِ فيه، ولغايةِ الوُجودِ الإنسانيِّ مِنْ صُنْعِ الإنسانِ نفسِه، هوَ تفسيرٌ قاصِرٌ؛ لأَنَّ الوُجُودَ أَكبرُ مِنَ الإنسانِ. فهناك استحالةٌ في أَنْ يَصْنعَ له الإنسانُ تفسيرًا شاملًا. ولأنَّ تحديدَ

غايةِ الوُجودِ الإنسانيِّ تحتاجُ إلىٰ علمِ خالقِ هذا الإنسانِ وما أَرادَه مِن خَلْقِه، كَما تَحتاجُ إلىٰ تجرُّدٍ مِنَ الهوىٰ في تحديدِ هذهِ الغايةِ! الأمرُ الَّذي لا يتيسَّرُ للإنسانِ أَبدًا.

والَّذي يُراجِعُ سِجِلَّ الفلسفةِ الَّتي حاولَتْ تفسيرَ الوُجُودِ، وتفسيرَ مكانِ الإنسانِ فيه، وتفسيرَ غايةِ الوُجودِ الإنسانيِّ، يقعُ علىٰ رُكامٍ عَجيبٍ. فيه مِنَ المـُضْحِكاتِ السَّاذَجَةِ بقَدْرِ ما فيهِ مِنَ السُّخْفِ والاِفْتِعالِ.حتَّىٰ لَيعجَبُ الإنسانُ: كيف تَصدُرُ هذهِ التَّصَوُّراتُ عنْ «**فيلسوف**»!! لولا أَن يتذكَّرَ أَنَّ هذا الفيلسوفَ إنسانٌ لا يملِكُ إلَّا أَداةَ العَقْلِ البَشَرِيِّ. وأنَّ هذا ليسَ مجالَ العَقْلِ البَشَرِيِّ، وأَنَّ هؤلاءِ النَّاسَ «**الفلاسِفةَ**» . همُ الَّذين زَجُّوا بأنفسِهم في مجالٍ لا مَنارَةَ لهمْ فيهِ، إلَّا تِلكَ الذُّبالةُ المـَوْهوبةُ لهمْ منَ الله لشَأْنٍ آخرَ غيرِ هذا الشَّأْنِ. ولمجالٍ آخرَ غيرِ هذا المجالِ. شأنٍ تملِكُ فيه أَن تُجْديَ، ومجالٍ تملِكُ فيه أَن تُنيرَ.. ذلكَ هوَ شأنُ الحياةِ الواقعيَّةِ، وذلكَ هوَ مجالُ الخِلافةِ في الأَرضِ. وَفْقَ المنهجِ الإلهِيِّ مع التَّطَلُّعِ إلىٰ فضلِ الله وعَوْنِه، فيما يمدُّهُ به مِن تفسيرٍ شاملٍ للوُجُودِ، ولغايةِ الوُجودِ الإنسانيِّ.. وقولُه الفَصْلُ وهوَ الحقُّ.. وقد تضمَّنَ منهجُهُ ذلك التَّفسيرَ بالقَدْرِ الَّذي يقومُ عليه التَّصوُّرُ الإنسانيُّ الصَّحِيحُ. وبالقَدْرِ الَّذي يقومُ عليه كذلكَ نِظامُ حياتِه علىٰ جُذورِه الطَّبيعِيَّةِ.



۞ **فنحن مُلْزَمونَ بمحاولةِ تحقيقِ ذلكَ المَنْهَجِ**؛ ليَقومَ نظامُ الحَياةِ البَشَرِيَّةِ علىٰ جُذُورِه الطَّبِيعِيَّةِ. وليسَ هنالكَ مَنْهَجٌ آخرُ تتوافرُ فيه هذهِ الخاصِّيَّةُ الَّتي لا بُدَّ منها.

۞ **ونحن أَخيرًا مُلْزَمون بمحاولةِ تحقيقِ ذلكَ المنهجِ**؛ لأنَّه وحدَه المنهجُ الَّذي يتناسقُ معَ نظامِ الكَونِ كُلِّهِ، فلا ينفرِدُ الإنسانُ بمنهجٍ لا يتناسقُ معَ ذلكَ النِّظَام. علىٰ حينِ أَنَّه مضطرٌّ أَنْ يعيشَ في إطارِ هذا الكَوْنِ، وأنْ يتعامَلَ بجُمْلَتِه معَ النِّظامِ الكَوْنِيِّ..

والتَّناسُقُ بينَ منهجِ حياةِ الإنسانِ ومنهجِ حياةِ الكَوْنِ هوَ وحدَه الَّذي يكفُلُ للإنسانِ التَّعاوُنَ معَ القُوى الكَوْنِيَّةِ الهائلةِ؛ بدلًا منَ التَّصادُمِ معها. وهوَ حينَ يصطدِمُ معها يتمزَّقُ وينسَحِقُ، ولا يُؤَدِّي وظيفةَ الخلافةِ في الأَرضِ، كما أَرادَها اللهُ لهُ. وحين يَتناسَقُ معَ نوامِيسِ الكَوْنِ ويتوافَقُ، يملِكُ معرفةَ أَسرارِها، وتَسْخِيرَها، والانتفاعَ بها في حياتِه. لا ليحترِقَ بنارِ الكَوْنِ، ولكنْ ليطبُخَ ويَسْتدفِئَ ويَستضِيءَ!!

والفِطْرَةُ البَشَرِيَّةُ في أَصلِها مُتناسِقَةٌ معَ ناموسِ الكَوْنِ.. فحينَ

يخرُجُ الإنسانُ بنظامِ حياتِه عنْ ذلكَ النَّاموسِ، فإنَّه لا يَصْطَدِمُ معَ الكَوْنِ الهائلِ فحَسْبُ؛ بلْ يَصْطَدِمُ أَيضًا بفطرتِه الَّتي بينَ جنبيهِ، فيَشقىٰ ويتمزَّقُ ويحتارُ ويقلَقُ؛ ويحيا كَما تَحيا البَشَرِيَّةُ اليومَ في عذابٍ نكِدٍ؛ على الرَّغمِ مِن جميعِ الانتصاراتِ العِلْمِيَّةِ، وجميعِ التَّيسيراتِ الحضاريَّةِ المادِّيَّةِ.

إنَّ هذهِ البشريَّةَ تُعانِي منَ الشَّقَاءِ والقَلَقِ والحَيْرَةِ والاِضْطِرَابِ، وتهرُبُ مِن واقعِها النَّفْسِيِّ بالأَفْيونِ والحَشِيشِ والمُسْكِراتِ. وبالسُّرْعةِ المجنونةِ، والمُغامراتِ الحَمْقاء؛ و«**بالتَّقالِيعِ**» السَّخِيفَةِ.. وذلكَ على الرَّغمِ مِنَ الرَّخاءِ المادِّيِّ والإنتاجِ الوَفيرِ والحَياةِ المُيَسَّرَةِ، والفراغِ الكثيرِ.. لا بلْ إنَّ الخَواءَ والقَلَقَ والحَيْرَةَ لتتضاعفُ كلُّها كُلَّما تضاعفَ الرَّخاءُ المادِّيُّ والتَّيْسيراتُ الحضارِيَّةُ..

إنَّ هذا الخَواءَ المَرِيرَ يُطارِدُ البَشَرِيَّةَ كالشَّبَحِ الرَّعِيبِ. يُطارِدُها فتهرُبُ منه. ولكنَّها تنتهي كذلكَ إلىٰ خَواءٍ مَرِيرٍ.

وما مِنْ أَحدٍ يزورُ البِلادَ الغَنِيَّةَ الثَّرِيَّةَ المُتْرَفةَ بالتَّيْسيراتِ الحضارِيَّةِ ـ وفي مُقدِّمتِها أَمريكا والسويد ـ حتَّىٰ يكونَ الاِنطِباعُ الأَوَّلُ في حِسِّهِ أَنَّ هؤلاء قومٌ هارِبونَ! هارِبونَ مِن أَشباحٍ تُطارِدُهم، هارِبونَ مِن ذواتِ أَنفُسِهم.. وسُرْعانَ ما ينكشِفُ له الرَّخاءُ المادِّيُّ



والمتاعُ الحِسِّيُّ والإِشباعُ الجِنْسِيُّ إلىٰ حَدِّ التَّمَرُّغِ في الوَحَلِ.. سُرْعانَ ما ينكشِفُ له هذا كُلُّه عنِ الأَمراضِ العَصَبِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ، والشُّذُوذِ الجِنْسِيِّ، والقَلَقِ العَصَبِيِّ، والمرَضِ والجُنُونِ، والجَريمَةِ الشَّاذَّةِ، وفَراغِ الحياةِ مِن كُلِّ تصوُّرٍ إنسانيٍّ كريمٍ.

لقدْ أَحرَزَتِ البشريَّةُ ـ عنْ طريقِ العِلْمِ ـ انتصاراتٍ ضَخْمَةً في عالمِ الصِّحَّةِ والعِلاجِ منَ الأمراضِ الجِسْمِيَّةِ. فكشفَتْ مِن الأدويةِ ووسائلِ التَّشْخِيصِ والعِلاجِ ما يُعدُّ انتصاراتٍ رائعةً. وبخاصَّةٍ بعدَ كشفِ مُركَّباتِ السُّلْفَا والبَنْسِلِين والمَايْسِين..

ولقدْ حقَّقَتْ في عالمِ الصِّناعَةِ والإنتاجِ ما يُشبِهُ الخوارقَ.. وما تزالُ في طريقِها صَعَدًا في هذا المجالِ.

ولقدْ أَحرَزَتِ انتصاراتٍ باهِرَةً في كُشوفِ الفَضاءِ، والأَقمارِ الصِّناعِيَّةِ، ومحطَّاتِ الهَواءِ. ومراكِبِ الفَضاءِ.. وما تزالُ في الطَّرِيقِ..

ولكنْ ! ما أَثَرُ هذا كُلِّه في حياتِها؟

ما أَثَرُه في حياتِها النَّفْسِيَّةِ!

هل وجدتِ السَّعادةَ؟

هل وجدتِ الطُّمَأْنينَةَ؟

هل وجدتِ السَّلامَ؟

كلا! لقدْ وجدَتِ الشَّقَاءَ والقَلَقَ والخَوْفَ.. إنَّها لم تتقدَّمْ كذلكَ في تصوُّرِ أَهدافِ الحياةِ الإنسانيَّةِ، وغايَةِ الوُجودِ الإنسانيِّ. وحينَ يُقاسُ تصوُّرُ الرَّجُلِ «**المتحضِّرِ**» لغايةِ وُجودِهِ الإنسانِيِّ، إلى التَّصَوُّرِ الإسلامِيِّ لهذِهِ الغايَةِ، تَبْدو الحَضَارَةُ الرَّاهِنَةُ لَعْنَةً تنحطُّ بالشُّعورِ الإنسانيِّ إلى الحَضِيضِ، وتُصَغِّرُ مِنِ اهتماماتِه وأشواقِه وإنسانِيَّتِه كُلِّها!

إنَّهم في أَمريكا مثلًا يَعبُدونَ آلِهةً جديدةً؛ يتصوَّرُونَها غايَةَ الوُجودِ الإنسانيِّ. إلهَ المالِ. وإلهَ اللَّذَّةِ. وإلهَ الشُّهْرَةِ. وإلهَ الإنتاجِ! ومن ثَمَّ لا يَجدونَ أَنفسَهم؛ لأَنَّهم لا يَجدونَ غايَةَ وُجودِهِمُ الإنسانِيِّ! وكذلكَ الحالُ في الجاهلِيَّاتِ الأُخْرى الَّتي تعبُدُ آلِهةً مُشابِهَةً؛ لأَنَّها لا تجِدُ إلهَها الحَقِيقِيَّ!

منْ أَجلِ هذا كُلِّهِ نحنُ مُلْزَمونَ بمُحاولةِ تحقيقِ ذلكَ المنهجِ الإلهِيِّ للحياةِ البَشَرِيَّةِ. لنرُدَّ البَشَرِيَّةَ إلى إلهِها الواحدِ؛ وإلىٰ غايَةِ وجودِها اللَّائِقَةِ بالإنسانِيَّةِ؛ وإلى النَّامُوسِ الكَوْنِيِّ الَّذي يشمَلُ الكَوْنَ كُلَّهُ ويشمَلُها.

وهذِهِ هيَ الحقيقةُ الَّتي يقرِّرُها القرآنُ الكريمُ؛ وهو يَسْتنكِرُ

مَسْلَكَ الَّذينَ يُريدونَ أَنْ يتحَاكموا إلىٰ غيرِ شريعةِ الله ومَنْهَجِه في الحياةِ، مُخالِفينَ بذلك عَنْ كُلِّ شيءٍ في هذا الوُجودِ الكَبيرِ..

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وصدق الله العظيم...



مَنْهَجٌ مُيَسَّـر

ثمَّ يقولُ قائلٌ: ولكنَّ البَشَرِيَّةَ لمْ تصبِرْ طويلًا علىٰ هذا المنهجِ السَّامِقِ الفَريدِ. فقدْ تفلَّتتْ منهُ الجماعةُ الَّتي حقَّقَتْه في الأَرضِ فَتْرةً مِنَ الزَّمانِ؛ وقدِ اتَّجهتِ البشريَّةُ بعدَه إلىٰ مناهجَ أُخرىٰ لا ترتفِعُ إلىٰ تلكَ القِمَّةِ السَّامِقَةِ، ولكنَّها لا تُكلِّفُ البشريَّة هذا الجُهدَ الشَّاقَّ!

وقدْ يبدُو هذا القَوْلُ صَحِيحًا للوَهْلَةِ الأُولىٰ. فقد حرَصَ كثيرٌ مِن الكُتَّابِ علىٰ تثبيتِ هذا المعنىٰ في النُّفُوسِ؛ وعلى الإيحاءِ بأنَّ هذا المنهجَ غيرُ عَمَلِيٍّ ولا واقِعِيٍّ؛ ولا تُطيقُه طَوِيلًا فِطْرَةُ البَشَرِ؛ وإنَّما هوَ دعوةٌ «**مِثاليَّةٌ**» إلىٰ أُفُقٍ غيرِ مُسْتَطاعٍ! وكانَ لهمْ مِن وراءِ تثبيتِ هذا المعنىٰ غَرَضٌ ماكِرٌ؛ هوَ إشاعَةُ اليَأْسِ مِنْ إمكانِ استئنافِ الحياةِ في ظِلِّ هذا المنهجِ؛ وتخذيلِ الجُهودِ الَّتي تُبْذَلُ لرَدِّ البشريَّةِ إلىٰ هذا المنهجِ القويمِ. ووجدَ هؤلاءِ الماكِرونَ في الفِتْنَةِ الَّتِي بدأتْ بقتلِ عثمانَ رضي الله عنه وما تلاهُ مِنَ



الخِلافِ بينَ عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ ومعاويةَ رضي الله عنهما وما أَعقبَ هذا الخِلافَ مِن أَحداثٍ.. وجَدوا في هذه الفِتْنةِ مادَّةً خَصْبَةً؛ وفي الرِّواياتِ الصَّحِيحَةِ والزَّائِفَةِ عنها فُرْصةً سانِحةً؛ لمحاولةِ تثبيتِ ذلكَ المعنى الخَبيثِ. طَوْرًا بالتَّلْمِيحِ. وطَوْرًا بالتَّصْرِيحِ، حَسْبَما واتَتْهمُ الظُّروفُ!

وساعَدَهُم في هذا المـكْرِ عنْ غيرِ قَصْدٍ وبحُسْنِ نِيَّةٍ جماعةٌ مِنَ المـُخْلِصِينَ الَّذِينَ ساءَهُم أَنْ تعْتَرِضَ هذِه الفِتْنَةُ خطَّ المدِّ الإسلامِيِّ الصَّاعِدِ في تِلكَ الفَتْرَةِ التَّاريخِيَّةِ العَظِيمَةِ. وأَنْ يقَعَ بعضُ الاِنحرافِ في تصوُّرِ سياسةِ الحُكْمِ عمَّا كانَ عليه في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والشَّيْخَيْنِ بعدَه. وأَنْ يقَعَ بعضُ الانحرافِ في سُلُوكِ بعضِ الأُمراءِ أَيْضًا.. ومِن ثَمَّ يحُسُّونَ بسببِ إِرْهافِ مَشاعِرِهم، أَنَّ المـَدَّ الإسلاميَّ كُلَّه قد توقَّفَ بعدَ فترةِ الخلافةِ القَصيرةِ! ويُنادون بهذه النَّظَرِيَّةِ في حرارةِ إخلاصِهم وشَوْقِهم لِلْقِمَّةِ السَّامِقَةِ! وحماسَتِهم للصُّورَةِ الوَضِيئَةِ الفَريدَةِ!

وهذا كُلُّه يحتاجُ إلىٰ إعادةِ النَّظَرِ؛ وإلىٰ دِقَّةِ النَّظَرِ؛ وإلىٰ تقديرِ العواملِ البَشَرِيَّةِ، معَ تقديرِ طبيعةِ هذا الدِّينِ؛ وطبيعةِ

منهجِه لقيادةِ خُطى البَشَرِيَّةِ في الزَّمَنِ الطَّوِيلِ؛ وفي مختلفِ البيئاتِ، ومختلفِ الظُّرُوفِ.

إنَّهُ ليسَ صَحِيحًا ـ ابتداءً ـ أَنَّ هذا المنهجَ الإلهِيَّ، يُكلِّفُ النَّفْسَ البشريَّةَ جُهْدًا أَشَقَّ منْ أَنْ تُطيقَه أَو أَنْ تصبِرَ طَوِيلًا عليه.

إنَّه منهجٌ سامِقٌ فِعْلًا. ولكنَّهُ في الوقتِ ذاتِه منهجٌ فِطْرِيٌّ. يعتمِدُ علىٰ رصيدِ الفِطْرَةِ، ويُنفِقُ مِن هذا الرَّصِيدِ المـَذْخُورِ. ومِيزَتُه أَنَّه يعرِفُ طريقَه منذُ اللَّحْظَةِ الأُولى إلىٰ هذا الرَّصِيدِ!

إنَّه يَعرِفُ طريقَه إلى النَّفْسِ البشريَّةِ منذُ اللَّمْسَةِ الأُولىٰ، يعرِفُ دُروبَها ومُنْحَنَياتِها، فيتَدَسَّسُ إليها بلُطْفٍ؛ ويعرِفُ مداخِلَها ومَخارِجَها فيَسْلُكُ إليها علىٰ اسْتِقامَةٍ، ويعرِفُ قُواها ومَقْدِرتَها، فلا يَتجاوزُها أَبدًا؛ ويعرِفُ حاجاتِها وأشواقَها فيُلبِّيها تمامًا؛ ويعرِفُ طاقاتِها الأصيلةَ البانيةَ، فيُطلِقُها للعملِ والبِناءِ.

وعلىٰ كلِّ رفعتِه ونظافتِه وسموِّه وسموقِه.. هو نظامٌ **للإنسان**، لهذا الإنسانِ الَّذي يعيشُ علىٰ سطحِ هذه الأَرض. نظامٌ يأخذُ في اعتبارِه فطرةَ هذا الإنسانِ بكلِّ مقوِّماتِها. وخصائصِ تكوينِه وتركيبِه بكلِّ مقتضياتِها.



وحينَ تستقيمُ النَّفسُ معَ فطرتِها؛ وحينَ تلبِّي حاجاتِها وأَشواقَها، وحينَ تطلقُ طاقاتِها للعملِ والبناءِ؛ فإنَّها تجري معَ الحياةِ في يسرٍ وطَواعيةٍ؛ وتمضي معَ خطِّ الفطرةِ الصَّاعدِ إلى القمَّةِ السَّامقةِ؛ وهيَ تجدُ الأَنسَ والاسترواحَ والطُّمأنينةَ والثِّقةَ في خطِّ سيرِها الطَّويلِ.

وبعضُ الَّذينَ يتشكَّكونَ ويشكِّكونَ في إمكانِ تحقيقِ هذا المنهجِ تروعُهم «**أَخلاقيَّةُ**» هذا المنهجِ؛ وأَصالةُ العنصرِ الأَخلاقيِّ في تكوينه؛ وتهولُهم تكاليفُ هذه «**الأَخلاقيَّة**» فيه؛ ويتصوَّرونَها قيودًا وكوابحَ دونَ انطلاقِ الإنسانِ إلىٰ ما يشتهي؛ وإلىٰ ما تدفعُه إليهِ نوازعُه الفطريَّةُ وأَشواقُه!

وهذا وهمٌ ناشئٌ منْ عدمِ إدراكِ طبيعةِ هذا الدِّينِ..

إنَّ أَخلاقيَّةَ الإسلامِ لا تتمثَّلُ في مجرَّدِ مجموعةٍ من القيودِ والكوابحِ والضَّوابطِ الرَّادعةِ، كلَّا! إنَّها في صميمِها قوَّةٌ بنَّاءةٌ، وحركةٌ دافعةٌ إلى النُّموِّ المطَّردِ؛ وانطلاقٌ إلى الحركةِ وتحقيقِ الذَّاتِ في هذهِ الحركةِ.. ولكنْ في أَسلوبٍ نظيفٍ..

إنَّ العملَ والإيجابيَّةَ صورةٌ أَخلاقيَّةٌ في هذا المنهجِ. فالتبطُّلُ

والسلبيَّةُ صورةٌ غيرُ أَخلاقيَّةٍ، لأنَّها تُنافي غايةَ الوجودِ الإنسانيِّ، كما يصوِّرُها الإسلامُ وهي الخلافةُ في الأَرضِ؛ واستخدامُ ما سخَّرَه اللهُ للإنسانِ مِن قُواها وطاقاتها في التَّعميرِ والبِناءِ.

والجهادُ لتحقيقِ الخيرِ ومكافحةِ الشَّرِّ صورةٌ أَخلاقيَّةٌ؛ تنطلقُ فيها طاقاتٌ أَساسيَّةٌ في الكيانِ الإنسانيِّ؛ بينما هيَ في اعتبارِ الإسلامِ طاعةٌ يتمثَّلُ فيها العنصرُ الأخلاقيُّ في صورةٍ رائعةٍ..

وحتَّىٰ حينَ نأخذُ الصُّورَ الأخلاقيَّةَ الَّتي تبدو في ظاهِرِها قيودًا وكوابحَ، فإنَّنا نجدُها منَ الجانبِ الآخرِ تمثِّلُ صورًا منَ الانطلاقِ والتَّحرُّرِ.. والحركةِ..

نأخذُ مثلًا: صورةَ ضبطِ النَّفسِ عنِ الاندفاعِ معَ الشَّهواتِ الجنسيَّةِ المحرَّمةِ.. إنَّها في ظاهِرِها تبدو كبتًا وكبحًا.. ولكنَّها في حقيقتِها تمثِّل التَّحرُّرَ منَ العبوديَّةِ لهذهِ الشَّهواتِ؛ والانطلاقَ من عِقالِها، واستعلاءَ الإرادةِ الإنسانيَّةِ، بحيثُ «تختارُ» مواضعَ هذهِ الشَّهواتِ في حدودِ النَّظافةِ الَّتي يوفِّرُها الإسلامُ، وفي دائرةِ الطَّيِّباتِ الَّتي أَحلَّها اللهُ[١].

(١) يراجع: فصل «مجتمع أخلاقي» في كتاب «نحو مجتمع إسلامي». وفصل «القيد والحرية» في كتاب «في النفس والمجتمع» لمحمد قطب.



كذلكَ نأْخذُ صورةً أُخرىٰ منْ صورِ الأَخلاقيَّة.. صورةَ الإيثارِ، إنَّها قدْ تبدو تكليفًا للنَّفسِ، وكفًّا لها عنِ التَّمتُّعِ بكلِّ ما تملكُ؛ لتُؤْثِرَ بهِ نفسًا أُخرىٰ.. ولكنَّها في صميمِها انطلاقٌ من الشُّحِّ، واستعلاءٌ على الحرصِ؛ وسَعةٌ في الشُّعورِ بالخيرِ العامِّ، الَّذي لا ينحصرُ في إطارِ الذَّاتِ.. فهيَ في حقيقتِها انفلاتٌ وتحرُّرٌ وانطلاقٌ.

ولا نملكُ المضيَّ في عرضِ الأَمثلةِ الكثيرةِ علىٰ هذا النَّحوِ. فحسبُنا هذهِ الإشارةُ، لفهمِ حقيقةِ «القيودِ» الأخلاقيَّةِ في المنهجِ الإسلاميِّ.

إنَّ الإسلامَ يعتبرُ الآثامَ والرَّذائلَ قيودًا وأَغلالًا، تشدُّ النَّفسَ الإنسانيَّةَ وتثقلُها وتهبطُ بها إلى الوحَلِ. ويعدُّ الانطلاقَ منْ أَوهاقِ[1] الميولِ الهابطةِ تحرُّرًا وانطلاقًا، وكلُّ «أَخلاقيَّتِه» تقومُ علىٰ هذا الأَساسِ.

ذلكَ أَنَّه يعتبرُ أَنَّ الأَصلَ في الفطرةِ هوَ الاستعدادُ للخيرِ؛ فالإنسانُ خلقَ في أَحسنِ تقويمٍ. وإنَّما يرتدُّ أَسفلَ سافلينَ حينَ يستسلمُ لغيرِ منهجِ الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٤-٦].. ومنْ ثمَّ فإنَّ المنهجَ

(١) «الوَهَق»: بسكون الهاء وفتحها؛ هو الحبل يكون في أحد طرفيه عقدة يُطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يُؤخذ، والجمع أوهاق (النَّاشر).

الَّذي يلائمُ الفطرةَ، هوَ الَّذي يعينُها على الانفلاتِ منَ القيودِ الطَّارئةِ على الفطرةِ الخيِّرةِ، والتحرُّرِ منْ رِبْقةِ الشَّهواتِ المقيِّدةِ!

والإسلامُ يحرصُ علىٰ قيادةِ المجتمعِ البشريِّ، والهيمنةِ عليهِ، لينشئَ فيهِ حالاتٍ وأَوضاعًا تُطلقُ الأَفرادَ منَ الانحرافاتِ الدَّخيلةِ على الفطرةِ؛ وتسمحُ للقُوى الخيِّرةِ البانيةِ في الفطرةِ بالظُّهورِ والتَّحرُّرِ والتَّفوُّقِ؛ وتزيلُ العوائقَ الَّتي تحولُ بينَ الفطرةِ والانطلاقِ إلى الخيرِ الَّذي فُطِرتْ عليهِ.

والَّذينَ يظنُّونَ أَنَّ «أَخلاقيَّةَ» الإسلامِ تجعلُ منه عبئًا ثقيلًا على البشريَّةِ، تحولُ دونَ تحقيقِه في حياتِهم، إنَّما يستمدُّونَ هذا الشُّعورَ ممَّا يعانيهِ الفردُ المسلمُ، حينَ يعيشُ في مجتمعٍ لا يُهيمنُ عليهِ الإسلامُ.. وحينَ يكونُ الأَمرُ كذلكَ يكونُ الإسلامُ بأَخلاقيَّتِه عبئًا ثقيلًا فادحًا بالفعل، يقصمُ ظهورَ الأَفرادِ الَّذين يعيشون بإسلامِهم النَّظيفِ في المجتمعِ الجاهليِّ القذِرِ؛ ويكادُ يسحقُهم سُحْقًا!

ولكنَّ هذا ليسَ هوَ الوضعَ الطَّبيعيَّ الَّذي يفترضُه الإسلامُ، وهوَ يفرضُ «أَخلاقيَّتَه» الرَّفيعةَ النَّظيفةَ السَّامقةَ على النَّاسِ.. إنَّ الإسلامَ نظامٌ واقعيٌّ، ومن ثمَّ فهوَ يفترضُ أَنَّ النَّاسَ الَّذينَ يعيشونَ بمنهجِه، يعيشونَ في مجتمعٍ يُهيمنُ عليه الإسلامُ.



وفي هذا المجتمعِ يكونُ الخيرُ والفضيلةُ والنَّظافةُ هيَ «**المعروفُ**» الَّذي يعرفُه ويصونُه كلُّ القائمينَ علىٰ هذا المجتمعِ. ويكونُ الشَّرُّ والرَّذيلةُ والقَذارةُ هيَ «**المنكرُ**» الَّذي تُطاردُه كلُّ القُوى المهيمنةِ علىٰ هذا المجتمعِ أيضًا!

وحينَ يستقيمُ الأَمرُ ـ علىٰ هذا النَّحوِ ـ يصبحُ المنهجُ الإسلاميُّ للحياةِ منهجًا ميسّرًا شديدَ التَّيسير. بلْ تصبحُ الصُّعوبةُ الحقيقيَّةُ هي مخالفةَ الأَفرادِ لهذا المنهجِ؛ ومحاولتَهم الاندفاعَ معَ الشَّهواتِ الهابطةِ. ومقارفةِ الشَّرِّ والرَّذيلةِ؛ لأَنَّ كلَّ القُوى المهيمنةِ على المجتمعِ حينئذٍ ـ مضافًا إليها قوَّةُ الفطرةِ السَّليمةِ المستقيمةِ ـ تقفُ في وجوهِهم، وتجعلُ طريقَهم المنحرفَ شاقًّا عسيرًا!

ومن هنا يحتِّمُ الإسلامُ أَنْ تكونَ الهيمنةُ المطلقةُ على الجماعةِ البشريَّةِ لله ولمنهجِ الله؛ ويحرِّمُ أَنْ تكونَ هذهِ الهيمنةُ المطلقةُ لأحدٍ منْ خلقِ الله، ولمنهجٍ منْ صنعِ غيرِ الله، ويعدُّ هذا كفرًا صريحًا أَوْ شركًا كاملًا ـ كما أَسلفْنا في مقدِّماتِ الفصلِ السَّابقِ ـ فالإسلامُ له صورةٌ واحدةٌ؛ هيَ إفرادُ الله ـ سبحانَه ـ بالأُلوهيَّةِ.. أَيْ: إفرادُ منهجِه بالهيمنةِ على الحياةِ البشريَّةِ؛ لأَنَّ هذا هوَ المعنى المباشرُ القريبُ لشهادةِ «**أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ**» كما أَسلفْنا.

كذلكَ يفترِضُ الإسلامُ قيامَ مجتمعٍ إسلاميٍّ يعيشُ في ظلِّه الفردُ المسلمُ بدينِه هذا، وبخلقِه الَّذي يفرضُه هذا الدِّينُ، ذلكَ أَنَّ الشُّعورَ الإسلاميَّ للوجودِ كلِّه، ولغايةِ الوجودِ الإنسانيِّ، يختلفُ اختلافًا جوهريًّا عنْ جميعِ التَّصوُّراتِ الجاهليَّةِ وهيَ الَّتي يصوغُها البشرُ لأنفسِهم في معزلٍ عنْ هدى الله في أَيِّ زمانٍ وفي أَيِّ مكانٍ وهو اختلافٌ رئيسيٌّ لا مجالَ فيه للالتقاءِ في منتصفِ الطَّريقِ..

فلا بُدَّ إذنْ منْ وسطٍ خاصٍّ يعيشُ فيهِ هذا التَّصوُّرُ، بكلِّ قيمِه الخاصَّةِ. لا بُدَّ لهُ منْ وسطٍ غيرِ الوسطِ الجاهليِّ؛ ولا بُدَّ له منْ بيئةٍ غيرِ البيئةِ الجاهليَّةِ.

هذا الوسطُ الخاصُّ يعيشُ بالتَّصوُّرِ الإسلاميِّ، وبالمنهجِ الَّذي ينبثقُ منهُ؛ ويتنفَّسُ أَنفاسَه الطَّبيعيَّةَ في طلاقةٍ وحرِّيَّةٍ، وينمو نموَّه الذَّاتيَّ بلا عوائقَ منْ داخلِه تؤخِّرُ هذا النُّموَّ أَو تقاومُه؛ وبلا عوائقَ منْ خارجِه تسحقُه أَو تطغىٰ عليه.

وفي هذا الوسطِ يحيا الفردُ المسلمُ حياةً طبيعيَّةً مريحةً؛ لأَنَّه يتنفَّسُ أَنفاسَه الطَّبيعيَّةَ؛ ويجدُ على الخيرِ أَعوانًا؛ ويجدُ في اتِّباعِ «**الأَخلاقيَّةِ**» الإسلاميَّةِ راحةً شعوريَّةً، وراحةً اجتماعيَّةً.



وبغيرِ هذا الوسطِ تصبحُ حياةُ هذا الفردِ متعذِّرَةً ـ أَوْ شاقَّةً على الأَقلِّ ـ ومنْ هنا ينبغي أَنْ يعلمَ مَنْ يريدُ أَنْ يكونَ مسلمًا أَنَّه لا يستطيعُ أَنْ يزاولَ إسلامَه إلَّا في وسطٍ مسلمٍ، يهيمنُ عليهِ الإسلامُ. وإلَّا فهوَ واهمٌ إذا ظنَّ أَنَّه يملكُ أَنْ يحقِّقَ إسلامَه، وهوَ فردٌ ضائعٌ أَوْ مُطارَدٌ في المجتمعاتِ الجاهليَّةِ!

إنَّ المنهجَ الإسلاميَّ مُيَسَّرٌ، حينَ يعيشُ في وسطِه هذا. وهوَ يفترضُ أَنَّ هذا الوَسَطَ لا بُدَّ منْ وجودِه، ويُقِيمُ توجيهاتِه كلَّها علىٰ هذا الأَساسِ.

كذلكَ ليسَ صحيحًا أَنَّ هذا المنهجَ يكلِّفُ البشريَّةَ جُهدًا أَشقَّ منَ الجُهدِ الَّذي تَبذُلُه وهيَ تحيا في ظلِّ المناهجِ الجاهليَّةِ..

إنَّ المناهجَ الجاهليَّةَ ـ وهيَ الَّتي يتَّخذُها البشرُ لأَنفسِهم في معزلٍ عنْ هدى الله في أَيِّ زمانٍ وفي أَيِّ مكانٍ ـ تتَّسمُ حتمًا بشيءٍ منْ نتائجِ الجهلِ البشريِّ والضَّعفِ البشريِّ والهوى البشريِّ ـ وذلكَ في أَحسنِ حالاتِها ـ فهيَ من ثمَّ تصطدمُ بالفطرةِ البشريَّةِ اصطدامًا كلِّيًّا أَو جزئيًّا. ومن ثمَّ تشقىٰ بها النَّفسُ بقدرِ ما فيها منَ التَّصادمِ معَ فطرتِها!

ثمَّ إنَّها تتَّسمُ كذلكَ بالعلاجاتِ والحلولِ الجزئيَّةِ للمشكلاتِ البشريَّةِ. وكثيرًا ما تعالجُ جانبًا بإيذاءِ الجانبِ الآخرِ؛ وتلكَ هيَ الثَّمرةُ المباشرةُ للرُّؤيةِ النَّاقصةِ الَّتي لا تلمُّ بجميعِ الجوانبِ في الوقتِ الواحدِ.. فإذا عادتْ إلىٰ علاجِ الدَّاءِ الجديدِ الَّذي أنشأهُ العلاجُ للدَّاءِ الأوَّلِ، أنشأَت داءً جديدًا.. وهكذا دَوَاليكَ[1].. كما تشهدُ بذلكَ دراسةُ التَّقلُّباتِ والأطوارِ الَّتي أنشأتْها النُّظُمُ البشريَّةُ والمناهجُ البشريَّةُ.. الجاهليَّةُ.. وهذا وذلكَ يكلِّفُ البشريَّةَ ـ ولا شكَّ ـ جهودًا أشقَّ منَ الجهدِ الَّذي تبذلُه للمنهجِ الكاملِ الشَّاملِ المستقيمِ معَ الفطرةِ؛ الَّذي ينظرُ إلىٰ مشكلاتِها كلِّها منْ جميعِ الجوانبِ، ويضعُ لها العلاجَ الكاملَ الشَّاملَ، المنبثقَ منَ الرُّؤيةِ الكاملةِ الشَّاملةِ.

والَّذي يُراجعُ سجلَّ الآلامِ البشريَّةِ، النَّاشئةِ منْ مناهجِ الجاهليَّةِ في تاريخِها الطَّويلِ، لا يجرُؤُ على القولِ بأنَّ هذا المنهجَ الإلهيَّ بكلِّ تكاليفِه، وبكلِّ «أخلاقيَّتِه» يكلِّفُ البشريَّةَ منَ الجهدِ ما لا تكلِّفُه لها المناهجُ الجاهليَّةُ!

وأيسرُ ما في هذا المنهجِ أنَّه ـ وهوَ يضعُ في حسابِه البلوغَ إلىٰ القمَّةِ السَّامقةِ ـ لا يعتسفُ الطَّريقَ، ولا يستعجلُ الخُطىٰ، ولا

(١) «**دَوَالَيْك**»: وهو مفعول مطلق معناه: كرَّات بعضُها في إثر بعض، أو مداولة بعد مداولةً، أَي دَاول يا فلان مداولة، ويُراد به التَّأكيد (النَّاشر) .



يتخطَّى المراحلَ.. إنَّ المدىٰ أَمامَه ممتدٌّ فسيحٌ؛ لا يحدُّه عمرُ فردٍ؛ ولا تستحثُّه رغبةُ فانٍ يخشىٰ أَن يعجلَه الموتُ أَوِ الفوتُ عنْ تحقيقِ غايتِه البعيدةِ؛ كما يقعُ لأَصحابِ المذاهبِ والمناهجِ الأَرضيَّةِ منَ البشرِ الفانين؛ الَّذينَ يعتسِفونَ الأَمرَ كلَّه في جيلٍ واحدٍ؛ ويتخطَّونَ الفطرةَ الهادئةَ الخُطىٰ، ليقفزوا إلىٰ تحقيقِ صورةٍ برَّاقةٍ تخايلُ لهم؛ ولا يصبرونَ على الخطوِ الطَّبيعيِّ الهادئِ المطمئنِّ البصيرِ.. وفي الطريقِ المعتسفِ الَّذي يسلكونَه تقومُ المجازرُ، وتسيلُ الدِّماءُ، وتتحطَّمُ القيمُ؛ وتضطربُ الموازينُ.. ثمَّ يتحطَّمونَ همْ في النِّهايةِ تحتَ مطارقِ الفطرةِ الَّتي لا تصمدُ لها الأجهزةُ المصطنعةُ العسوفُ!

فأَمَّا المنهجُ الإسلاميُّ فيسيرُ هيِّنًا ليِّنًا ـ معَ الفطرةِ ـ يوجِّهُها منْ هنا، ويذودُها منْ هناكَ؛ ويقوِّمُها حينَ تميلُ. ولكنَّه لا يكسرُها ولا يحطِّمُها ولا يجهدُها كذلكَ. إنَّه يصبرُ عليها صبرَ العارفِ البصيرِ، الواثقِ منَ الغايةِ البعيدةِ المدىٰ، الأَكيدةِ التَّحقيقِ.. والَّذي لا يتمُّ في الجولةِ الأُولىٰ يتمُّ في الجولةِ الثَّانيةِ، والَّذي لا يتمُّ في الجولةِ الثَّانيةِ يتمُّ في الجولةِ الثَّالثةِ.. أَوِ العاشرةِ.. أَوِ المئةِ.. أَوِ الألفِ! كلُّ ما هوَ مطلوبٌ هوَ بذلُ الجهدِ والمضيُّ في الطَّريقِ!

وكما تنبتُ الشَّجرةُ الباسقةُ، وتضربُ بجذورِها في أَعماقِ التُّربةِ، وتتطاولُ فروعُها وتتشابكُ.. كذلكَ ينبتُ هذا المنهجُ في النَّفسِ والحياةِ. ويمتدُّ في بطءٍ، وعلىٰ هينةٍ. وفي ثقةٍ وطمأنينةٍ.. ثمَّ يكونُ ما يريدُ اللهُ أَنْ يكونَ.

إنَّ الإسلامَ يُلقي بذورَه، ويقومُ علىٰ حراستِها؛ ويدعُها حينئذٍ تنمو نموَّها الطَّبيعِيَّ الهادِئَ وهوَ واثقٌ منَ الغايةِ البعيدةِ. ومهما يحدثْ منَ البُطْءِ أَحيانًا، ومنَ التَّراجُعِ أَحيانًا، فإنَّ هذا شأْنُ الفطرةِ.. والزَّرعةُ قدْ تُسْفَىٰ عليها الرِّمالُ.. وقدْ يأكلُ بعضَها الدُّودُ. وقدْ يحرقُها الظَّمأُ، وقدْ يغرقُها الرِّيُّ. وقدْ تصابُ بشتَّى الآفاتِ.. ولكنَّ الزَّارعَ البصيرَ يعلمُ أَنَّها زرعةٌ للبقاءِ والنَّماءِ، وأَنَّها ستغالبُ الآفاتِ كلَّها على المدى الطَّويلِ. فلا يعتسفُ، ولا يقلق. ولا يحاولُ أَنْ يُنْضِجَها بغيرِ وسائلِ الفطرةِ الهادئةِ اليسيرةِ.. ومنْ ثمَّ يصاحبُها اليسرُ، وتسهلُ تكاليفُها على النُّفوسِ.

علىٰ أَنَّنا لا نحتاجُ ـ اليومَ ـ إلى الحديثِ عمَّا تُعانيه البشريَّةُ منِ اعتسافِ المناهجِ الجاهليَّةِ وأَصحابِها. وحسبُنا ما تجأرُ بهِ منَ الشِّقْوةِ في مشارقِ الأَرضِ ومغاربِها، وما يجهرُ بهِ بقيَّةُ العقلاءِ منْ صيحاتِ الإنذارِ والخطرِ في كلِّ مكانٍ..



وأَخيرًا؛ فإنَّه ليسَ صحيحًا أَنَّ هذا المنهجَ لمْ يعِشْ طويلًا.. كما يقولُ بعضُهم في خبثٍ وكيدٍ، وبعضُهم في حماسةٍ وغيرةٍ! فإنَّ البناءَ الرُّوحيَّ والاجتماعيَّ والسِّياسِيَّ، الَّذي قامَ علىٰ أَساسِ هذا المنهجِ السَّامقِ الفريدِ، والَّذي لمْ يستغرِقْ بناؤُه سوىٰ قرنٍ واحدٍ منَ الزَّمانِ ـ بلْ نصفِ قرنٍ في الحقيقةِ ـ قدْ ظلَّ يقاومُ جميعَ الآفاتِ الَّتي تسلَّلتْ إليهِ، وجميعَ العداواتِ الَّتي ساورتْه، وجميعَ الهجماتِ الوحشيَّةِ الَّتي شُنَّتْ عليهِ.. أَكثرَ منْ أَلفِ عامٍ..

وقدْ ظلَّتْ هذهِ العواملُ الرَّهيبةُ تُساورُه وتهاجمُه وتتسلَّلُ إلىٰ قواعدِه في إصرارٍ.. ووراءَها جميعُ قُوى العالمِ الجاهليِّ.. فلا تبلغُ أَنْ تحطِّمَه منْ أَساسِه. ولكنَّها معَ تطاولِ الزَّمانِ، ومعَ التَّجمُّعِ والتَّرصُّدِ، ومعَ الإصرارِ والاستمرارِ، ظلَّتْ تنقصُ منه شيئًا فشيئًا؛ وتنحرفُ بهِ عنْ أصولِه شيئًا فشيئًا؛ حتَّىٰ أَثخنتْه فعلًا وهدَّدتْه تهديدًا خطيرًا.. ومعَ هذا كلِّه فإنَّها لم تستطِعْ ـ حتَّى اللَّحظة ـ تشويهَ أصولِه النَّظريَّةِ؛ فما تزالُ هذه الأُصولُ قادرةً على البعثِ الجديدِ. حين يعتنقُها جيلٌ جديدٌ!

ولكي ندرِكَ قيمةَ هذهِ الحقيقةِ التَّاريخيَّةِ، ينبغي أَنْ ننظرَ إلىٰ بناءٍ آخرَ، قامَ علىٰ منهجٍ جاهليٍّ.. ذلكَ هوَ بناءُ الدَّولةِ الرُّومانيَّةِ..

لقدِ استغرقَ هذا البناءُ قرابةَ أَلفِ عامٍ. ثمَّ تحطَّمَ فيما لا يزيدُ علىٰ قرنٍ واحدٍ تحتَ ضرباتِ الهونِ والقوطِ.. ولم يقمْ بعدَ ذلكَ أَبدًا. ولا بقيَتْ في أصولِه بقيَّةٌ ينهضُ عليها بعثٌ جديدٌ!

وهذا هوَ الفارقُ الأَساسيُّ بينَ منهجِ الله ومناهجِ العبيدِ!

نعمْ، إنَّه كانتْ هناكَ فترةٌ فارعةٌ في تاريخِ هذا المنهجِ وفي تاريخِ البشريَّةِ كلِّهِ ظلَّتْ تتراءىٰ ـ في التاريخِ البشريِّ كلِّه ـ كالقمَّةِ السَّامقةِ، تتطاولُ إليها الأَعناقُ، وتتطلَّعُ إليها الأَنظارُ؛ وهيَ في مكانِها السَّاميِّ هناكَ! .. وهيَ فترةٌ قصيرةٌ فعلًا..

ولكنَّ هذهِ الفترةَ ليستْ هيَ كلَّ العهدِ الإسلاميِّ.. إنَّما هيَ منارةٌ أَقامَها اللهُ؛ لتظلَّ البشريَّةُ تتطلَّعُ إليها، وتحاولُ أَنْ تبلغَها كذلكَ؛ وتتجدَّدَ آمالُها في بلوغِ القمَّةِ السَّامقةِ، وهيَ تَدْرُجُ إليها في المُرتقى الصَّاعدِ، ويقسمُ اللهُ لها ما يقسمُ منَ المدارجِ في هذا المُرتقىٰ. وهي تتطلَّعُ دائمًا إلى المنارةِ الهاديةِ!

حقيقةً، إنَّ هذه الفترةَ لم تكنْ وليدةَ معجزةٍ لا تتكرَّرُ، وإنَّها كانتْ ثمرةَ الجهدِ البشريِّ الَّذي بذلتْه الجماعةُ المسلمةُ الأُولىٰ؛ وإنَّها ممكنةُ التَّحقيقِ حينَ يُبذلُ مثلُ ذلكَ الجهدِ مرَّةً أُخرىٰ..



ولكنَّ هذا الجهدَ الَّذي بذلتْه طائفةٌ مختارةٌ منَ البشرِ، قدْ يكونُ مَرْصودًا لكثيرٍ منَ الأَجيالِ البشريَّةِ القادمةِ ـ لا لجيلٍ واحدٍ ـ وقدْ يكونُ تحقيقُ تلكَ القمَّةِ الفريدةِ في ذلكَ الجيلِ الواحدِ، قدرًا من أَقدارِ الله، لكي يقومَ هذا النَّموذجُ في صورةٍ واقعيَّةٍ تمكنُ محاولتُها، وتمكنُ معرفةُ خصائصِها.. ثمَّ يتركُ للبشريَّةِ بعدَ ذلكَ في أَجيالِها المتتابعةِ، أَنْ تحاولَ بلوغَها منْ جديدٍ..

وقدْ ظلَّ المنهجُ يؤدِّي دورَه، فيما بعدَ هذهِ الفترةِ، في مساحاتٍ واسعةٍ منَ الحياةِ البشريَّةِ، وظلَّ يفعلُ في تصوُّراتِ البشريَّةِ وتاريخِها وواقعِها أَجيالًا طويلةً؛ وتركَ منْ ورائِه آثارًا وتيَّاراتٍ في حياةِ البشريَّةِ كلِّها، لعلَّها هيَ الَّتي تجعلُنا نأْملُ اليومَ في إمكانِ البشريَّةِ أَنْ تتطلَّعَ إلى المحاولةِ منْ جديدٍ...



مَنهجٌ مؤثّر

علىٰ أَنَّ هذهِ الإشراقةَ اللَّامعةَ، بلغتْ منَ التَّأثيرِ الدَّائمِ في واقعِ الحياةِ البشريَّةِ، قدرَ ما بلغتْه منَ البهاءِ والرِّفعةِ، ومنَ العظمةِ والكمالِ، وخلَّفتْ في واقعِ البشريَّةِ التَّاريخيِّ منَ الآثارِ الباقيةِ ما قدْ يجعلُ الجيلَ الحاضرَ منْ هذهِ البشريَّةِ اليومَ أَقدرَ على المحاولةِ منْ سائرِ الأَجيالِ الَّتي خلتْ بعدَ تلكَ الصَّفوةِ المختارةِ منْ رجالِ الصَّدرِ الأوَّلِ وذلكَ بمساعدةِ التَّيَّاراتِ الَّتي أَطلقتْها، والرَّواسبِ الَّتي خلَّفتْها في التَّصوُّراتِ والقيمِ، وفي النُّظمِ والأَوضاعِ سواء.

وسنحاولُ في هذا الفصلِ أَنْ نلمَّ ـ في اختصارٍ وإجمالٍ يُناسِبانِ طبيعةَ هذا البحثِ المُجْمَلِ المختصرِ ـ بلمحاتٍ عنْ آثارِ هذهِ الإشراقةِ الوضيئةِ الفريدةِ، **لا في تاريخِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ وحدَها، ولكنْ كذلكَ في تاريخِ البشريَّةِ بجملتِها.**





لقدِ استطاعَتْ تلكَ الفترةُ أَنْ تنشئَ في واقعِ الحياةِ البشريَّةِ عددًا كبيرًا منَ الشَّخصيَّاتِ النَّموذجيَّةِ، تتمثَّلُ فيها الإنسانيَّةُ العُليا بصورةٍ غيرِ مسبوقةٍ ولا ملحوقةٍ. صورةٍ تبدو في ظلِّها جميعُ الشَّخصيَّاتِ البشريَّةِ الَّتي نشأَتْ في غيرِ هذا المنهجِ أَقزامًا صغيرةً، أَو كائناتٍ لم تستكملْ وجودَها بعدُ، أَو كائناتٍ غيرِ متناسقةٍ علىٰ كلِّ حالٍ!

ولم تكنْ هذهِ الشَّخصيَّاتُ النَّموذجيَّةُ الَّتي أَخرجَها المنهجُ الإلهيُّ في تلكَ الفترةِ القصيرةِ آحادًا تعدُّ علىٰ أَصابعِ اليدينِ؛ إنَّما كانتْ حشدًا كبيرًا؛ يعجبُ الباحثُ كيفَ انبثقَتْ هكذا سامقةً ناضجةً إلىٰ هذا المستوى العجيبِ في هذهِ الفترةِ القصيرةِ المحدودةِ، ويعجزُ عنْ تعليلِ انبثاقِها علىٰ هذا النِّطاقِ الواسعِ، وعلىٰ هذا المستوى الفارعِ، وفي مثلِ هذا التَّنوُّعِ في النَّماذجِ.. ما لم يردَّ هذهِ الظَّاهرةَ الفريدةَ إلىٰ فعلِ ذلكَ المنهجِ الفريدِ.

والمهمُّ أَنْ نعرفَ أَنَّ هؤلاءِ النَّاسَ الَّذينَ تمثَّلتْ فيهم نماذجُ الإنسانيَّةِ العُليا. النَّماذِجُ الَّتي ظلَّتْ فريدةً في سُموِّها؛ وظلَّتْ سائرُ النَّماذجِ علىٰ مدارِ القرونِ تبدو في ظلِّها أَقزامًا صغيرةً، أَوْ كائناتٍ غيرِ تامَّةِ الوجودِ.. المهمُّ أَنْ نعرفَ أَنَّ هؤلاءِ النَّاسَ الَّذينَ حقَّقوا ذلكَ

المنهجَ الإلهيَّ في حياتِهم علىٰ هذا النَّحوِ العجيبِ، قدْ ظلُّوا ـ معَ هذا ـ ناسًا منَ البشرِ لم يخرُجوا عنْ طبيعتِهم، ولا عنْ فطرتِهم؛ ولم يكبتوا طاقةً واحدةً منْ طاقاتِهم البانيةِ؛ ولم يكلِّفوا أَنفسَهم كذلكَ فوقَ طاقتِهم.. لقدْ زاولوا كلَّ نشاطٍ إنسانيٍّ، وأَصابوا منَ الطَّيِّباتِ كلَّ ما كانَ متاحًا لهم في بيئتِهم وزمانِهم.. لقدْ أَخطؤوا وأَصابوا، وعثروا ونهضوا؛ وأَصابَهم الضَّعفُ البشريُّ أَحيانًا ـ كما يصيبُ سائرَ البشرِ ـ وغالَبوا هذا الضَّعفَ، وانتصروا عليه أَحيانًا أُخرىٰ..

والمعرفةُ بهذه الحقيقةِ ذاتُ أَهميَّةٍ قُصوىٰ. فهيَ تعطي البشريَّةَ أَملًا قويًّا في إعادةِ المحاولةِ؛ وتجعلُ مِن واجبِها ـ بلْ تجعلُ مِن حقِّها ـ أَنْ تتطلَّعَ إلىٰ هذه الصُّورةِ الوضيئةِ الممكنةِ، وأَنْ تظلَّ تتطلَّعُ. فهيَ صورةٌ منْ شأْنِها أَنْ تزيدَ منْ ثقةِ البشريَّةِ بنفسِها، وبفطرتِها، وبمَقدِرتِها الكامنةِ، الَّتي يمكنُ ـ عندما يوجدُ المنهجُ الصَّالحُ ـ أَنْ تبلغَ بها إلىٰ ذلكَ المستوى الإنسانيِّ الرَّفيعِ الَّذي بلغتْه مرَّةً في تاريخِها.. فهيَ لم تبلغْه بمعجزةٍ خارقةٍ لا تتكرَّرُ.إنَّما بلغتْه في ظلِّ منهجٍ منْ طبيعتِه أَنْ يتحقَّقَ بالجهدِ البشريِّ، وفي حدودِ الطَّاقةِ البشريَّةِ.



ولقدِ انبثقَ ذلكَ الجيلُ الفارغُ العظيمُ منْ قلبِ الصَّحراءِ، الفقيرةِ الموارِدِ، المحدودةِ المقدَّراتِ الطَّبيعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والعلميَّةِ.. وعلىٰ كلِّ ما كانَ في هذهِ البيئةِ منَ الموافقاتِ المكوِّنةِ لهذا الانبثاقِ الهائلِ العجيبِ، فإنَّ البشريَّةَ ـ اليومَ وغدًا ـ ليستْ عاجزةً بفطرتِها، ولا عاجزةً بمقدِرتِها، أَنْ تنجحَ مرَّةً أخرىٰ في المحاولة إذا هي اتَّخذتْ ذلكَ المنهجَ قاعدةً لحياتِها.

ولقدْ ظلَّ هذا المنهجُ ـ علىٰ كلِّ ما أَلَمَّ بهِ علىٰ مدى الزَّمنِ منِ انحرافاتٍ ومنْ خصوماتٍ ومنْ هجماتٍ ـ يبعثُ بنماذجَ منَ الرِّجالِ، فيها منْ ذلكَ الجيلِ الأَوَّلِ الفارعِ مشابهٌ؛ وفيها منه آثارٌ وانطباعاتٌ.. وظلَّتْ هذه النَّماذجُ تؤثِّرُ في الحياةِ البشريَّةِ تأَثيراتٍ قويَّةً؛ وتؤثِّرُ في خطِّ سيرِ التَّارِيخِ البشريِّ؛ وتتركُ منْ حولِها ومنْ ورائِها تيَّاراتٍ ودوَّاماتٍ هائلةً تطبعُ وجهَ الحياةِ؛ وتلوِّنُ سماتِها.

وما يزالُ هذا المنهجُ قادرًا في كلِّ حينٍ، علىٰ أَنْ يبعثَ بهذِه النَّماذِجِ كلَّما بُذلتْ محاولةٌ جدِّيَّةٌ في تطبيقِه وتحكيمِه في الحياةِ على الرَّغمِ منْ جميعِ المؤثِّراتِ المضادَّةِ؛ وعلى الرَّغمِ منْ جميعِ المعوِّقاتِ مِن حولِه وفي طريقِه.

والسِّرُّ الكامنُ فيه هو تعاملُه المباشرُ مع الفطرةِ؛ واستمدادُه

المباشرُ منْ رصيدِها المكنونِ. وهوَ رصيدٌ هائلٌ، ورصيدٌ دائمٌ. وحيثما التقىٰ معَ هذا المنهجِ تفجَّرتْ ينابيعُه الثَّرَّةُ؛ وفاضَ فيضُه المكنونُ!

واستطاعتْ هذهِ الفترةُ أَنْ تقرِّرَ في واقعِ الحياةِ البشريَّةِ مبادئَ وتصوُّراتٍ، وقيمًا وموازين، لم يُسبقْ أَنْ تقرَّرتْ في تاريخِها كلِّه بمثلِ هذا الوُضوحِ، وبمثلِ هذا العُمقِ، وبمثلِ هذا الشُّمولِ للنَّشاطِ الحيويِّ كلِّه. ولم يقعْ كذلكَ أَنْ تقرَّرتْ هذهِ المبادئُ والتَّصوُّراتُ والقيمُ والموازينُ في واقعِ البشريَّةِ مرَّةً أُخرىٰ وفي ظلِّ أَيِّ منهجٍ وأيِّ نظامٍ في الأرضِ كلِّها بمثلِ هذا الوضوحِ، وبمثلِ هذا العمقِ، وبمثلِ هذا الشُّمولِ للنَّشاطِ الحيويِّ كلِّه.. ثمَّ ـ وهذا هو الأَهمُّ ـ بمثلِ هذا الصِّدقِ والجدِّ والإخلاصِ والتَّجرُّدِ الحقيقيِّ العميقِ.

وقد تناولتْ هذه المبادئُ والتَّصوُّراتُ. وهذه القيمُ والموازينُ كلَّ قِطَاعاتِ الحياةِ الإنسانيَّةِ. تناولتْ تصوُّرَ البشريَّةِ لإلِهِها، وعلاقاتِها به، وتصوُّرَها لهذا الوجودِ الَّذي تعيشُ فيهِ وعلاقتَها بهِ. وتصوُّرَها لغايةِ وجودِها الإنسانيِّ ومكانِها في هذا الكونِ ووظيفتِها..

كما تناولتْ ـ تبَعًا لذلكَ ـ تصوُّرَها لحقيقةِ الإنسانِ، وحقوقِه وواجباتِه وتكاليفِه، والقيمِ الَّتي توزنُ بها حياتُه ونشاطُه ومكانتُه، والَّتي تقومُ عليها علاقاتُه بربِّه، وعلاقاتُه بأَهلِه، وعلاقاتُه بأَبناءِ جنسِه، وعلاقاتُه بالكونِ والأَحياءِ والأَشياءِ.

وممَّا تناولتْه.. الحقوقُ والواجباتُ السِّياسيَّةُ والاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّةُ. والأَنظمةُ والأَوضاعُ والرَّوابطُ الَّتي تنظمُ هذه الحقوقَ والواجباتِ، وبالجملةِ كلَّ قِطَاعاتِ الحياةِ الإنسانيَّةِ في شتَّىٰ صورِها وجوانبِها الكثيرةِ.

وقرَّرتْ في هذا كلِّهِ حكمَها الَّذي يفردُها ويميِّزُها، ويجعلُ لها طابعَها الرَّبَّانِيَّ الفريدَ..

وقدْ تمَّ هذا كلُّهُ في وسطٍ محليٍّ مُعادٍ لمثلِ هذهِ المبادئِ والتَّصوُّراتِ، ولهذهِ القيمِ والموازينِ.. وفي وسطٍ عالميٍّ منكرٍ لأَساسِ هذهِ المبادئِ والتَّصوُّراتِ والقيمِ والموازينِ. وفي ظروفٍ اقتصاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وعقليَّةٍ ونفسيَّةٍ ـ محليَّةٍ وعالميَّةٍ ـ من شأْنِ ظواهرِها أَنْ تصادمَ هذهِ الاتِّجاهاتِ الَّتي قرَّرها الإسلامُ في واقعِ الحياةِ البشريَّةِ للمرَّةِ الأُولىٰ، أَوْ على الأَقلِّ لا تساعدُها على الحركةِ الطَّليقَةِ. معتمدًا في نجاحِه ـ قبلَ كلِّ شيءٍ ـ علىٰ رصيدِ

الفطرةِ البشريَّةِ منَ الاستعدادِ للاستقامةِ على المنهجِ الإلهيِّ ـ الموافقِ في صميمِه لهذهِ الفطرةِ ـ قبلَ أَنْ تغشِّيَها المؤثِّراتُ السَّطحيَّةُ ـ وعلىٰ استثارةِ هذا الرَّصيدِ، واستنقاذِه من الرُّكامِ الَّذي رانَ عليه. وهوَ رصيدٌ ضخمٌ، يكفي ـ حينَ يوجدُ المنهجُ الَّذي يستنقذُه منَ التَّبدُّدِ والانطمارِ لمقاومةِ تلكَ المؤثِّراتِ السَّطحيَّةِ، الَّتي يظنُّ بعضُ قصارِ النَّظرِ أَنَّها تمثِّلُ كلَّ شيءٍ في حياةِ الإنسانِ.. والإسلامُ لا يغفلُ هذهِ المؤثِّراتِ ولا يهملُ آثارَها في الحياةِ البشريَّةِ. ولكنَّه لا يقفُ أَمامَها مستسلِمًا باعتبارِها «أمرًا واقعًا» لا فكاكَ منه. بل يلجأُ إلىٰ استنقاذِ رصيدِ الفطرة؛ وتجميعِه، وتوجيهِه؛ لتعديلِ الواقعِ، في رفقٍ وتؤدَةٍ ـ علىٰ نحوِ ما بيَّنا منْ طريقتِه في العملِ في الفصلِ السَّابقِ ـ وينتهي إلىٰ مثلِ ما انتهى إليه في تلكَ الفترةِ في مواجهةِ تلك الظُّروفِ المناوئةِ، المحلِّيَّةِ والعالميَّةِ، وتحويلِها إلىٰ ظروفٍ مواتيةٍ، كما حدثَ بالفعلِ في الجزيرةِ العربيَّةِ وفيما وراءَها كذلكَ!

والبشريَّةُ اليومَ قدْ تكونُ ـ في بعضِ الجوانبِ ـ أَحسنَ حالًا وظروفًا منها يومَ جاءَها هذا المنهجُ، وأَحدثَ فيها ـ في فترةٍ قصيرةٍ ـ ذلكَ الانقلابَ الشَّاملَ، وتلكَ الثَّورةَ العُظمىٰ ـ في رفقٍ ويسرٍ وانطلاقٍ ـ وقد تكونُ أَقدرَ على العملِ بهذا المنهجِ ـ للأَسبابِ



الَّتي سنبديها في فصلٍ تالٍ ـ وقدْ تكونُ طاقتُها اليومَ علىٰ حمله أَكبرَ. وبخاصَّةٍ حينَ نعرفُ أَنَّ رصيدَ الفطرةِ الإنسانيَّةِ ـ على الرَّغمِ منْ كلِّ ما يرسبُ فوقَه منْ ركامِ الفسادِ والشَّرِّ والانحرافِ، وعلى الرَّغم منْ كلِّ ما يبدِّدُه ويسحقُه منَ الأَوضاعِ المادِّيَّةِ والمؤثِّراتِ الاقتصاديَّةِ والفكريَّةِ ـ قادرٌ علىٰ أَن ينتفضَ، ويتجمَّعَ، ويعملَ، حينَ يفلحُ المنهجُ في استنقاذِه وتجميعِه وتوجيهِه، وإطلاقِه في الخطِّ المتناسقِ معَ فطرةِ الإنسانِ، وفطرةِ الكونِ، كما خلقَها اللهُ، وأَنَّ هذا الرَّصيدَ منَ الأَصالةِ، والعمقِ، والضَّخامةِ، بحيثُ يرجِّحُ سائرَ العواملِ الأُخرى الَّتي تأْخذُ صورةَ «**الواقعِ**».. فما بالُ إذا كانَ بَعْضُ هذهِ العواملِ اليومَ في صفِّه وفي اتِّجاهِه؟

إنَّ «**الواقعَ**» الخارجيَّ يتراءىٰ لمنْ لا يعرفونَ طبيعةَ هذا المنهجِ، كما لوْ كانَ هوَ الحقيقةَ الَّتي لا سبيلَ إلىٰ تغييرِها، ولا سبيلَ إلىٰ زحزحتِها، ولا سبيلَ إلى التَّمرُّدِ عليها!

ولكنَّ هذا ليسَ إلَّا وهمًا كبيرًا. فالفطرةُ البشريَّةُ «**واقعٌ**» كذلكَ. وهيَ ليستْ علىٰ استقامةٍ معَ هذا الواقعِ الظَّاهريِّ؛ بدليلِ أَنَّها تشقىٰ بهِ في مشارقِ الأَرضِ ومغاربِها. وحينَ تصطدمُ الفطرةُ بوضعٍ منَ الأَوضاعِ، أَوْ بنظامٍ منَ النُّظمِ، فقدْ تُغلَبُ في أَوَّلِ الأَمرِ؛

لأَنَّ وراءَ هذا الوضعِ أَوْ هذا النِّظامِ قوَّةً مادِّيَّةً تفرضُه فرضًا؛ ولكنَّ الَّذي لا شكَّ فيه أَنَّ الفطرةَ أَقوىٰ وأَثبتُ منْ كلِّ وضعٍ طارئٍ عليها، ومنْ كلِّ قوَّةٍ تسندُ هذا الوضعَ الطَّارئَ. ولا بُدَّ لها منْ أَنْ تغلبَ في النِّهايةِ. وبخاصَّةٍ حينَ يقودُها منهجٌ طبيعتُه منْ طبيعتِها..

وقدْ حدثَ هذا مرَّةً يومَ واجهَ ذلكَ المنهجُ الإلهيُّ «واقعَ» الجزيرةِ العربيَّةِ، وواقعَ الأَرضِ كلِّها. فانتصرَ علىٰ هذا الواقعِ انتصارًا رائعًا؛ وبدَّلَ قوائمَه التَّصوُّريَّةَ والعمليَّةَ؛ وأَقامَه علىٰ أَسسٍ جديدةٍ.

وهذا الَّذي حدثَ لم يتمَّ بمعجزةٍ خارقةٍ لا تتكرَّرُ. ولكنَّه تحقَّقَ ـ وفقَ سنَّةِ الله الدَّائمة ـ بجهدٍ بشريٍّ، وفي حدودِ الطَّاقةِ البشريَّةِ.. فدلَّتْ هذه السَّابقةُ علىٰ إمكانِ تَكرارِ هذهِ الظَّاهرَةِ.

فما بالُ إذا كانتِ التَّيَّاراتُ الَّتي أَطلقتْها تلكَ الفترةُ، والرَّواسبُ الَّتي خلَّفتْها في حياةِ البشريَّةِ، وفي الواقعِ التَّاريخيِّ، كلُّها عواملُ مساعدةٌ في المحاولةِ الجديدةِ؟

واستطاعتْ تلكَ الفترةُ أَنْ تقرَّ في حياةِ البشريَّةِ تقاليدَ عمليَّةً، وأَوضاعًا واقعيَّةً ـ تستندُ إلىٰ تلكَ المبادئِ والتَّصوُّراتِ والقيمِ



والموازينِ ـ لم تمتْ وتذهبْ بانقضاءِ تلكَ الفترةِ. ولكنَّها امتدَّتْ في صورةِ تيَّارٍ متحرِّكٍ، مندفعٍ إلىٰ مسافاتٍ بعيدةٍ في الأَرضِ؛ وإلىٰ أَحقابٍ متطاولةٍ منَ الزَّمانِ. وتأَثَّرتْ بها الحياةُ البشريَّةُ كلُّها ـ علىٰ صورةٍ منَ الصُّوَرِ ـ وأَصبحتْ رصيدًا للبشريَّةِ كلِّها، تنفقُ منه وتستمدُّ أَكثرَ منْ أَلفِ عامٍ.. رصيدًا يؤثِّرُ في تصوُّراتِها، ويؤثِّرُ في أَوضاعِها، ويؤثِّرُ في تقاليدِها، ويؤثِّرُ في علومِها ومعارفِها، ويؤثِّرُ في اقتصادِها وعمرانِها، ويؤثِّرُ في حضارتِها كلِّها تأْثيراتٍ متفاوتةً؛ ولكنَّها مطَّردةٌ فاعلةٌ في كلِّ ركنٍ منْ أَركانِ الأَرضِ. وما تزالُ بقايا مِن ذلكَ التَّيَّارِ تعملُ في واقعِ الحياةِ البشريَّةِ حتَّى اليومَ، على الرَّغمِ مِن جميعِ القُوى الَّتي وقفتْ في وجهِ هذا المدِّ الغامرِ، وعلى الرَّغمِ من النَّكْسَةِ أَوِ النَّكَساتِ إلى الجاهليَّةِ الإغريقيَّةِ والجاهليَّةِ الرُّومانيَّةِ في العالَم الغربيِّ، الَّذي سيطرَ علىٰ مقاليدِ الأَرضِ أَحقابًا متطاولةً!

وقدِ استقرَّتْ في حياةِ البشريَّةِ مِن وراءِ هذه التَّأْثيراتِ الواقعيَّةِ مبادئُ وقيمٌ، ونظريَّاتٌ وأَوضاعٌ، قدْ تجهلُ البشريَّةُ اليومَ مصدرَها الأَصيلَ، وقدْ تردُّها إلىٰ مصادرَ أُخرىٰ غيرِ ذلكَ المنهجِ المؤثِّرِ. ولكنَّه ليسَ منَ المتعذِّرِ معرفةُ أَصلِها الأَوَّلِ، والرُّجوعُ بها إلىٰ فعلِ المنهجِ الإلهيِّ، وآثارِه في الحياةِ البشريَّةِ. وسنُشيرُ في فصلٍ تالٍ

إلىٰ بعضِ الخطوطِ العريضةِ الَّتي انتهتِ البشريَّةُ إلىٰ إقرارِها اليومَ، وكانتْ منكرةً لها أَشدَّ الإنكارِ يومَ جاءَها بها الإسلامُ، أَوَّل مرَّةٍ، منذُ نيِّفٍ وثلاثِ مائةٍ وأَلفِ عامٍ!

ولعلَّه منْ شأنِ استقرارِ هذهِ الخطوطِ العريضةِ في حياةِ البشريَّةِ وأَوضاعِها الحاضرةِ، بعدَ الإنكارِ الشَّديدِ لها يومَ جاءَها بها الإسلامُ أَوَّل مرَّةٍ، أَنْ تكونَ البشريَّةُ اليومَ أَقربَ ـ بصفةٍ عامَّةٍ ـ إلىٰ تفهُّمِ هذا المنهجِ، وأَقدرَ كذلكَ علىٰ حملِه، ولديها منه رصيدٌ واقعيٌّ، خلَّفَتْه موجةُ المدِّ الأَوَّلِ، لم يكنْ لديها يومَ جاءَها أَوَّلَ مرَّةٍ! ولديها كذلكَ رصيدٌ منْ تجاربِها الخاصَّةِ في فترةِ التِّيهِ والشُّرودِ عنْ هذا المنهجِ؛ وما أَصبحتْ تعانيهِ اليومَ منْ آثارِ هذا التِّيهِ وهذا الشُّرودِ ـ مما سبقتِ الإشارةُ إليه باختصارٍ ـ فهذهِ وتلكَ قدْ تكونُ منَ العواملِ المساعدةِ علىٰ تقبُّلِ المنهجِ الإلهيِّ، والصَّبرِ عليهِ في الجولةِ القادمةِ.. بإذنِ الله..

ولعلَّه يحسُن الآنَ وقدْ وصلْنا إلىٰ هذا الحدِّ منَ الإشاراتِ المجملةِ أَنْ نفصِّلَها بعضَ التَّفصيلِ، بذكرِ شيءٍ منْ مدلولاتِها الواقعيَّةِ في الحياةِ البشريَّةِ منْ خلالِ الواقعِ التَّاريخيِّ، وبتفصيلِ

شيءٍ عنْ رصيدِ الفطرةِ الَّذي واجَه به الإسلامُ واقعَ البشريَّةِ فانتصرَ عليهِ، وقرَّرَ منهجَه في وجهِ ذلكَ الواقعِ..



رَصِيدُ ٱلْفِطْرَة

يومَ جاءَ الإسلامُ أَوَّلَ مرَّةٍ وقفَ في وجهِه **«واقعٌ»** ضخمٌ. واقعُ الجزيرةِ العربيَّةِ، وواقعُ الكرةِ الأَرضيَّةِ!.. وقفَتْ في وجهه عقائدُ وتصوُّراتٌ؛ ووقفَتْ في وجهِه قيَمٌ وموازينُ؛ ووقفت في وجهِه أَنظمَةٌ وأَوضاعٌ؛ ووقفَت في وجهِه مصالحُ وعصبيَّاتٌ..

كانتِ المسافةُ بينَ الإسلامِ ـ يومَ جاءَ ـ وبينَ واقعِ النَّاسِ في الجزيرةِ العربيَّةِ وفي الكُرةِ الأَرضيَّةِ، مسافةً هائلةً سحيقةً. وكانتِ النُّقلةُ الَّتي يريدُهم عليها بعيدةً بعيدةً...

وكانتْ تسندُ **«الواقعَ»** أَحقابٌ من التَّاريخِ؛ وأَشتاتٌ من المصالحِ؛ وأَلوانٌ من القُوىٰ؛ وتقِفُ كلُّها سدًّا في وجهِ هذا الدِّين الجديدِ؛ الَّذي لا يكتفِي بتغييرِ العقائدِ والتصوُّراتِ، والقيَمِ والموازينِ، والعاداتِ والتَّقاليدِ، والأَخلاقِ والمشاعرِ.. إنَّما يريدُ كذلكَ ـ ويصِرُّ ـ علىٰ أَن يُغيرَ الأَنظمةَ والأَوضاعَ، والشَّرائعَ



والقوانينَ، وتوزيعَ الأَموالِ والأَرزاقِ. كما يصِرُّ علىٰ انتزاعِ قيادةِ البشريَّةِ من يدِ الطَّاغوتِ والجاهليَّةِ، ليرُدَّها إلى الله وإلى الإسلامِ!

ولو أَنَّه قيلَ لكائنٍ مَن كانَ ـ في ذلك الزَّمانِ ـ إنَّ هذا الدِّينَ الجديدَ الَّذي يحاوِلُ هذا كلَّه، في وجهِ ذلك «**الواقعِ**» الهائل، الَّذي تسنُدُه قُوى الأَرض كُلُّها، هو الَّذي سينتصِرُ، وهو الَّذي سيبدِّلُ هذا الواقعَ في أَقلَّ من نصفِ قرنٍ من الزَّمانِ، لما لقيَ هذا القولُ إلَّا السُّخريةَ والاستهزاءَ والاستنكارَ!

ولكنَّ هذا «**الواقعَ**» الهائلَ الضَّخمَ، سُرعانَ ما تزحزَحَ عن مكانِه، ليخلِّيه للوافدِ الجديدِ. وسُرعانَ ما تسلَّمَ القائدُ الجديدُ مقادةَ البشريَّةِ ليُخرِجها من الظُّلماتِ إلى النُّورِ؛ ويقودَها بشريعةِ الله، تحتَ رايةِ الإسلامِ!

كيفَ وقعَ هذا الَّذي يبدو مستحيلًا في تقديرِ مَن يُبهِرُهم «**الواقعُ**» ويسحَقُهم ثِقلُه، وهم يزِنون الأُمورَ والأَوضاعَ؟!

كيفَ استطاعَ رجلٌ واحدٌ؛ محمدُ بنُ عبدِ الله ﷺ.. أَن يقِفَ وحدَه في وجهِ الدُّنيا كلِّها، أَو على الأَقلِّ في وجهِ الجزيرةِ العربيَّةِ كلِّها في أَوَّلِ الأَمرِ؟ أَو على الأقلِّ في وجهِ قريشٍ سادةِ العرَبِ كُلهم في منشأ الدَّعوةِ؟ وأَمامَ تلكَ العقائدِ والتصوُّراتِ، والقِيمِ

والموازينِ، والأَنظمةِ والأَوضاعِ، والمصالحِ والعصبيَّاتِ.. ثمَّ ينتَصِرَ علىٰ هذا كُلِّه؛ ويبدِّلَ هذا كلَّه؛ ويُقيمَ النِّظامَ الجديدَ، علىٰ أَساسِ المنهجِ الجديدِ، والتَّصورِ الجديدِ؟

إنَّه لم يتملَّق عقائدَهم وتصوراتِهم؛ ولم يداهِن مشاعِرَهم وعواطِفَهم؛ ولم يُهَادِن آلهتَهم وقيادَتهم.. لم يتمسكَن حتَّىٰ يتمكَّن.. إنَّه أُمرَ أَن يقولَ لهم منذُ الأيامِ الأُولىٰ، وهو في مكةَ، تتألَّبُ عليه جميعُ القُوىٰ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۞ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾..

فلم يكتَفِ بأَنْ يُعلنَ لهم افتِراقَ دينِه عن دينِهم، وعبادَتِه عن عبادَتِهم، ومفاصلَتهم في هذا مفاصلةً كاملةً لا لقاءَ فيها. بل أُمِرَ كذلكَ أَن يُيئسَهم من إمكانِ هذا اللِّقاءِ في المستقبَلِ. فكرَّرَ عليهم: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۞ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.. وباطِّرادِ المفاصلَةِ في هذا الأَمرِ، الَّذي لا التقاءَ فيه! ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

وهو كذلكَ لم يُبهِرهم بادِّعاء أَن له سلطانًا سريًّا؛ ولا مزايا غيرَ بشريةٍ ولا مواردَ سريةٍ؛ بل أُمرَ أَن يقولَ لهم:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].



ولم يوزِّعِ الوعودَ بالمناصبِ والمغانمِ لمن يتَّبِعونه، حينَ ينتصِرُ علىٰ مخالفِيه. قالَ ابنُ إسحاقَ: «كانَ النبيُّ ﷺ يعرِضُ نفسَه على القبائلِ في الموسمِ ـ موسمِ الحجِّ ـ يقولُ: «يا بني فلانٍ! إنِّي رسولُ الله إلَيكم، يأْمرُكم أَن تعبُدُوه ولا تشرِكوا به شيئًا؛ وأَنْ تخلَعُوا ما تعبدُون من دونِه من هذهِ الأَندادِ؛ وأَن تؤمِنوا بي وتصَدِّقوا بي، وتمنَعوني حتَّىٰ أُبَينَ عنِ الله ما بعثَني به».

قالَ ابنُ إسحاقَ: وحدَّثني الزُّهريُّ: أَنه أَتىٰ بني عامرِ بن صعصَعةَ، فدعاهم إلى الله ﷻ وعرَضَ عليهم نفسَهُ. فقالَ رجلٌ منهم يُقالُ له: بيجَرةُ بنُ فِراسٍ: والله لو أَني أَخذتُ هذا الفتىٰ من قريشٍ لأَكلتُ به العرَبَ! ثمَّ قالَ له: أَرأيتَ إن نحنُ بايعناك علىٰ أَمرِكَ، ثمَّ أَظهرَكَ اللهُ علىٰ من خالفَكَ، أَيكونُ لنا الأَمرُ من بعدِكَ؟ قالَ: «**الأَمرُ لله يضَعُه حيثُ يشاءُ**». قالَ: فقالَ له: أَفتهدِفُ نحورَنا للعربِ، فإذا أَظهرَك اللهُ كانَ الأَمرُ لغيرنا؟ لا حاجةَ لنا بأَمرِك! فأَبَوا عليه»..

كيفَ إذَن وقعَ الَّذي وقعَ؟ كيفَ قوَّىٰ ذلكَ الرجلُ الواحدُ علىٰ قهرِ ذلكَ «**الواقعِ**»؟

إنَّه لم يقهَره بمعجزةٍ خارقةٍ لا تتكرَّرُ. فقد أَعلَنَ ﷺ أَنه لا يعمَلُ في هذا الحقل بخارِقةٍ؛ ولم يستجِبْ مرَّةً واحدةً لطلبِهم

للخوارقِ.. إنَّما وقَعَ الَّذي وقعَ وفقَ سنةٍ دائمةٍ تتكرَّرُ كلَّما أَخذَ النَّاسُ بها واستجابوا إلَيها..

لقد وقعَ الَّذي وقعَ من غلبةِ هذا المنهَجِ، لأَنَّه تعاملَ من وراءِ الواقعِ الظاهرِيِّ معَ رصيدِ الفطرَةِ المكنونِ. وهوَ رصيدٌ ـ كما أَسلَفنا ـ ضخمٌ هائلٌ، لا يغلِبُه هذا الرُّكامُ الظَّاهريُّ؛ حينَ يستنقِذُ ويجمَعُ ويوجِّهُ، ويطلِقُ في اتجاهٍ مرسومٍ!

[واقعَ العقيدةِ والتصوُّر]

كانت المعتقداتُ الفاسدةُ والمحرَّفةُ تَرِينُ علىٰ ضميرِ البشريَّةِ. وكانتِ الآلهةُ الزائفةُ تزحَمُ فِناءَ الكعبةِ كما تزحَمُ تصوُّراتِ النَّاسِ وعقولَهم وقلوبَهم. وكانِت المصالحُ القبليَّةُ والاقتصاديَّةُ تقومُ علىٰ كواهِلِ هذه الآلهةِ الزَّائفةِ، وما وراءَها من سَدانةٍ وكَهانةٍ، ومن أَوضاعٍ في حياةِ النَّاسِ، مستمدَّةً من توزيعِ خصائصِ الأُلوهيَّةِ بين العبادِ؛ وإعطاءِ السَّدنةِ والكهنَةِ حقَّ الاشتراعِ للنَّاسِ، ووضعِ مناهجِ الحياةِ!!

وجاءَ الإسلامُ يواجِه هذا «**الواقع**» كلَّه بـ «**لا إله إلا الله**». ويخاطِبُ الفطرةَ الَّتي لا تعرِفُ لها إلهًا إلا اللهُ. ويعرِّفُ النَّاسَ



بربِّهم الحقِّ، وخصائصِهِ وصفاتِه الَّتي تعرِفُها فطرَتهم من تحتِ الأَنقاضِ والرُّكامِ!

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٤- ١٩].

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ

إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ * قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾... [الأنعام: ٥٦ ٦٥].

واستمعَتِ الفِطرةُ إلى الصَّوتِ القديمِ، الَّذي يخاطِبُها من وراءِ ركامِ الواقعِ الثَّقيلِ، في التِّيهِ العريضِ. وثابَتْ إلى إلهها الواحدِ. وانتصرَتِ الدَّعوةُ الجديدةُ على الواقعِ الثَّقيلِ!





[واقعَ الأَوضاعِ والتقاليدِ]

وعندَما ثابَ النَّاسُ إلىٰ إلهٍ واحدٍ. امتنَعَ أَن يعبُدَ النَّاسُ النَّاسَ ووقفَ الجميعُ رافعي الرُّؤوسِ أَمامَ بعضِهم البعضِ. يومَ انحنَت كلُّ الرُّؤوسِ للإلهِ الواحدِ القاهِر فوقَ عبادِه. وانتهَت أُسطورَةُ الدِّماءِ المتفاضِلة،والأَجناسِ المتفاضِلة،وورا ثةُ الشَّرفِ والحكمِ والسُّلطانِ..

ولكن كيفَ وقعَ هذا؟

لقد كانَ هناكَ «واقعٌ» اجتماعيٌّ، وراءَه مصالحُ طبقيَّةٌ وعنصريَّةٌ، ماديَّةٌ ومعنويَّةٌ. واقعٌ سائدٌ في الجزيرةِ العربيَّةِ، وسائدٌ في الأَرضِ من حولِها. واقعٌ ليسَ محلَّ اعتِراض أَحدٍ؛ لأَنَّ المنتَفِعين بهِ لا يسأَمُونَه، والرَّازِحين تحتَه لا يُنكِرونَه!

* **كانتْ قريشٌ** تسمِّي نفسَها «**الحُمُسَ**» وتفرِضُ لنفسِها حقوقًا وتقاليدَ ليست لسائرِ العربِ. وتقفُ في الحجِّ بالمُزدلفةِ حينَ يقفُ النَّاسُ جميعًا بعرفاتٍ! ويقيمونَ علىٰ هذِهِ الامتيازاتِ منافِعَ اقتصاديَّةً يفرِضونها علىٰ سائرِ العرَبِ. فيحتِّمون عليهم أَلا يطوفوا بالبيتِ إلَّا في ملابسَ يشترونها من قريشٍ؟ وإلَّا طافوا بالبيتِ عُراةً؟

وكانتِ الأَرضُ كلُّها من حولِ الجزيرةِ تعجُّ بالتفرُّقاتِ القائمةِ علىٰ اختلافِ الدِّماءِ والأَجناسِ وتفاضُلِها..

* «**كانَ المجتمعُ الإيرانيُّ مؤسَّسًا علىٰ اعتبارِ النِّسَبِ والحِرفِ. وكان بين طبقاتِ المجتمعِ هوَّةٌ واسعةٌ لا يقومُ عليها جسرٌ، ولا تصِلُ بينَها صلةٌ. وكانت الحكومةُ تحظُرُ على العامَّةِ أَن يشتريَ أَحدٌ منهم عقارًا لأَميرٍ أَو كبيرٍ. وكانَ من قواعدِ السِّياسةِ السَّاسانيَّةِ أَن يقتنِعَ كلُّ واحدٍ بمركزِه الَّذي منحَهُ نسبُهُ، ولا يستشرِفَ لما فوقَه. ولم يكُن لأَحدٍ أَن يتَّخِذَ حِرفةً غيرَ الحِرفةِ الَّتي خلقَهُ اللهُ لها. وكانَ ملوكُ إيرانَ لا يولُّونَ وضيعًا وظيفةً من وظائفِهم. وكانَ العامَّةُ كذلك طبقاتٍ متميزةً بعضُها عن بعضٍ تميُّزًا واضحًا، وكان لكلِّ واحدٍ مركزٌ محدَّدٌ في المجتمعِ**»(١).

* «**وكانتِ الأَكاسرةُ ملوكُ فارسٍ يدَّعون أَنَّه يجرِي في عروقِهم دمٌ إلهيٌّ. وكانَ الفُرسُ ينظُرونَ إليهم كآلهةٍ، ويعتقِدُونَ أَنَّ في طبيعَتِهم شيئًا عُلويًا مقدَّسًا فكانوا يكفُرون لهم، وينشِدُون**

---

(١) عن كتاب «إيران في عهد الساسانيين» تأليف البروفيسور أورتهر سين. نقلًا عن كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للأستاذ السيد أبو الحسن الندوي.



الأناشيدَ بأُلوهيَّتِهم، ويرونَهم فوقَ القانونِ، وفوقَ الانتِقادِ، وفوقَ البشرِ، لا يجرِي اسمُهم علىٰ لسانِهم، ولا يجلِسُ أَحدُهم في مجلسِهم؛ ويعتقِدُون أَن لهم حقًّا علىٰ كلِّ إنسانٍ، وليسَ لإنسانٍ حقٌّ عليهم. وأَنَّ ما يرضَخون لأَحدٍ من فضولِ أَموالِهم وفُتاتِ نِعَمهم فإنَّما هو صدقةٌ وتكرُّمٌ، من غيرِ استحقاقٍ، وليسَ للنَّاسِ قبلَهم إلَّا السمعُ والطاعةُ. وخصَّصوا بيتًا معينًا ـ وهوَ بيتُ الكياني ـ فكانوا يعتَقِدون أَن لأَفرادِه وحدَهم الحقَّ أَن يلبَسُوا التَّاجَ، ويَجْبُوا الخراجَ. وهذا الحقُّ يتنقِلُ فيهم كابرًا عن كابرٍ، وأَبًا عن جدٍّ، لا ينازِعُهم ذلك إلَّا ظالمٌ، ولا ينافِسُهم إلَّا دَعِيٌّ نذلٌ، فكانوا يدينُونَ بالملكِ وبالوراثةِ في البيتِ المالكِ، لا يبغُونَ بهِ بدلًا، ولا يرَونَ عنه محيصًا. فإذا لم يجدوا من هذِه الأُسرةِ كبيرًا ملَّكُوا عليهم طفلًا. وإذا لم يجِدوا رجُلًا ملَّكوا عليهم امرأَةً. فقد ملَّكُوا بعدَ «شيرويهِ» ولدَه «أَردَشِيرَ» وهو ابنُ سبعِ سنينَ. وملكَ «فرخ زاد خسرو بنُ كسرىٰ أَبرويز» وهو طفلٌ. وملَّكوا بورانَ بنتَ كسرىٰ. وملَكَت كذلكَ ابنةُ كِسرىٰ ثانيةَ يُقالُ لها: «أزرمي دخت». ولم يخطُرْ ببالهم أَن يملِّكُوا عليهم قائدًا كبيرًا، أَو رئيسًا من رؤسائهم، مثلَ «رستُمَ» و «جابانَ» وغيرِهما.

لأَنَّهم ليسُوا من البيتِ الملَكِيِّ![١].

* وكانَ نظامُ الطَّبقاتِ في الهندِ من أَعنَفِ وأبشَعِ ما يصنَعُ الإنسانُ بالإنسانِ.

«وقبلَ ميلادِ المسيحِ بثلاثةِ قرونٍ ازدَهرت في الهندِ الحضارةُ البرهميَّةُ؛ ووُضِعَ فيها مرسومٌ جديدٌ للمجتمَعِ الهنديِّ، وأُلِّفَ فيه قانونٌ مدنيٌّ سياسيٌّ اتُّفِقَ عليه، وأَصبحَ قانونًا رسميًا، ومرجِعًا دينيًّا. في حياةِ البلادِ ومدنيَّتِها، وهو المعروفُ الآنَ: «منوشاستر».

«يقسِمُ هذا القانونُ الأَهالي إلىٰ أَربعِ طبقاتٍ متميِّزةٍ. وهيَ:

(١) البراهمةُ: طبقةُ الكهَنةِ ورجالِ الدِّينِ.

(٢) شترىٰ: رجالُ الحربِ.

(٣) ويش: رجالُ الزِّراعةِ والتِّجارةِ.

(٤) شودر: رجالُ الخِدمةِ.

ويقولُ «منو» مؤلِّفُ هذا القانونِ:

---

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبو الحسن الندوي.



«إنَّ القـادِرَ المطلـقَ قـد خلـقَ لمصلحـةِ العالـمِ البراهمةَ من فمِـهِ، وشـترىٰ مـن سـواعِدِه، وويـش مـن أَفخـاذِه، والشـودرَ مـن أَرجلِـه! ووزَّعَ لهـم فرائـضَ وواجبـاتٍ لصـلاحِ العالـمِ. فعلـى البراهمـةِ تعليـمُ «ويـد»[1] أَو تقديـمُ النُّـذورِ للآلهـةِ. وتعاطـي الصَّدقـاتِ. وعلـىٰ «الشـترىٰ» حراسـةُ النَّـاسِ، والتصـدُّقُ وتقديمُ النُّـذورِ ودراسـةُ «ويـد» والعـزوفُ عن الشَّـهواتِ. وعلـىٰ «ويش» رعيُ السَّـائمةِ والقيـامُ بخدْمتِها، وتلاوةُ «ويد» والتِّجـارةُ والزِّراعةُ. وليـسَ «لشـودر» إلا خدمـةُ هـذه الطبقـاتِ الثَّـلاثِ!

«وقد منحَ هذا القانونُ طبقةَ البراهمةِ امتيازاتٍ وحقوقًا أَلحقَتْهم بالآلهةِ. فقد قالَ: إنَّ البراهمةَ هم صفوةُ الله، وهم ملوكُ الخلقِ، وإن ما في العالمِ هو مِلكٌ لهم، فإنهم أَفضَلُ الخلائقِ وسادةُ الأرضِ، ولهم أَن يأخذوا من مالِ عبيدِهم شودر من غيرِ جَريرَةٍ ما يشاءون؛ لأنَّ العبدَ لا يملِكُ شيئًا، وكلُّ مالِه لسيِّدِه. وإنَّ البرهميَّ الَّذي يحفَظُ «رك ويد» (الكتابَ المقدَّسَ) هو رجلٌ مغفورٌ له، ولو أَبادَ العوالم الثلاثةَ بذنوبِه وأَعمالِه.

ولا يجوزُ للملكِ حتَّىٰ في أَشدِّ ساعاتِ الاضطرارِ والفاقةِ أَن يجبيَ من البراهمةِ جبايةً، أَو يأخُذَ منهم إِتاوةً، ولا يصحُّ لبرهمِيٍّ في

---

(١) الكتاب المقدس.

بلادِه أَن يموتَ جُوعًا، وإِن استحقَّ برهميٌّ القتلَ، لم يجُز للحاكِم إلَّا أَن يحلِقَ رأسَه، أَما غيرُه فيُقتَل!

«أَمَّا الشتري فإنهم[1] كانوا فوقَ الطبَقَتين (ويش وشودر) ولكنَّهم دونَ البراهمةِ بكثيرٍ. فيقولُ: «منو» إنَّ البرهميَّ الَّذي هو في العاشرةِ من عمرِه يفوقُ الشتري الَّذي ناهزَ مئةً، كما يفوقُ الوالدُ ولدَهُ!

أَمَّا شودر «المنبوذونَ»: فكانوا في المجتمَع الهنديِّ بنصِّ هذا القانونِ المدنيِّ الدِّينيِّ أَحطَّ من البهائمِ، وأذلَّ من الكلابِ. فيصرِّحُ القانونُ بأنَّ من سعادة شودر أَن يقومُوا بخدمَةِ البراهمَةِ، وليسَ لهم أَجرٌ أَو ثوابٌ بغيرِ ذلك. وليسَ لهم أَن يقتَنُوا مالًا، أَو يدَّخِروا كنزًا، فإنَّ ذلك يؤذي البراهمةَ! وإذا مدَّ أَحدٌ من المنبوذِينَ إلىٰ برهميٍّ يدًا أَو عصًا ليبطِشَ به قُطعَت يدُه، وإذا رفسَهُ في غضبٍ فُدِعَت رِجلُه؛ وإذا همَّ أَحدٌ من المنبوذِين أَن يجالِسَ برهميًّا فعلى الملكِ أَن يكوِيَ استَه، أَو يحرِمَه وينفِيَه من البلادِ. وأَمَّا إذا مسَّهُ بيدٍ، أَو سبَّه فيُقتَلعُ لسانُه. وإذا ادَّعىٰ أَنه يُعلِّمُه سُقيَ زيتًا فائرًا. وكفارةُ قتلِ الكلبِ والقطةِ والضِّفدعةِ والوزغِ والغرابِ والبومةِ. ورجلٍ من الطبقةِ المنبوذةِ، سواءٌ!»[2].

---

(١) في الأصل المطبوع: فإنه. [الناشر].

(٢) المصدر السابق.



* **أَمَّا الحضارةُ الرُّومانيةُ** الشهيرةُ فقامَت علىٰ أَساسِ التَّرفِ، الَّذي يوفرُهُ ثلاثةُ أَرباعِ سكَّانِها من العبيدِ، للرُّبعِ الباقي من الأَشرافِ! وعلىٰ أَساسِ التفرِقةِ في نصوصِ القانونِ بين السَّادةِ والعبيدِ، وبينَ الطبقاتِ الكريمةِ والوضيعَةِ:

جاءَ في مدوَّنةِ جوستنيان القانونيةِ الشَّهيرةِ:

«ومن يستهوِ أَرملةً مستقِيمةً أَو عذراءَ، فعقُوبَته ـ إن كانَ من بيئةٍ كريمةٍ ـ مصادرةُ نصفِ مالِه، وإن كانَ في بيئةٍ ذميمةٍ فعقوبَتُه الجَلدُ والنفيُ من الأَرضِ»[1].

* وبينَما كانَ هـذا «**الواقـعُ**» سـائدًا فـي الأَرضِ كُلِّهـا، كانَ الإسـلامُ يخاطِـبُ «**الفطـرةَ**» مـن تحـتِ ركامِ الواقعِ. الفطـرةَ الَّتي تنكِـرُ هذا كلَّـه ولا تعرِفـه. وكانتِ اسـتجابةُ الفِطرةِ لنداءِ الإسـلامِ أَقـوىٰ من هـذا الواقـعِ الثَّقيلِ.

استمعَتِ الفطرةُ الى الله ـ سبحانَه ـ يقولُ للناسِ جميعًا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.. [الحجرات: ١٣].

---

(١) ص ٣١٧ ترجمة عبد العزيز فهمي.

واستمعَتْ إليه ـ سبحانَه ـ يقولُ لقريشٍ خاصَّةً:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.. [البقرة: ١٩٩].

واستمعَتْ إلىٰ رسولِ الله ﷺ يقولُ للنَّاسِ جميعًا:

«يا أَيُّها النَّاسُ! إنَّ ربكُمْ واحدٌ، وإنَّ أَباكم واحدٌ، كلُّكم لآدمَ وآدمُ من ترابٍ. إنَّ أَكرمكُم عندَ الله أَتقاكم. وليسَ لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأَحمرَ علىٰ أَبيضَ، ولا لأبيضَ علىٰ أَحمرَ فضلٌ إلَّا بالتَّقوىٰ».

واستمعَتْ إليهِ يقولُ لقريشٍ خاصَّةً:

«يا معشرَ قريشٍ! اشترُوا أَنفُسَكم، لا أُغني عنكُم من الله شيئًا، ويا بني عبدِ منافٍ! لا أُغني عنكم منَ الله شيئًا. يا عباسُ بنَ عبدِ المطلِّبِ! ما أُغني عنكَ من الله شيئًا، يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ! سلِيني ما شئتِ من مالي، لا أُغني عنكِ من الله شيئًا» [متفق عليه].

استمعَتِ الفِطرةُ الى النِّداءِ المستجابِ؛ وأَزاحَتْ عنها ركامَ «**الواقعِ**» وانطلقَتْ مع المنهجِ الإلهيِّ.. ووقعَ ما وقعَ وفقَ سنَّةِ الله المطَّرِدةِ، القابلَةِ للوقوعِ في كلِّ حينٍ.



[واقعَ الاقتصادِ والتَّعاملِ]

وكانَ النِّظامُ الربويُّ هو السائدَ في الجزيرةِ العربيَّةِ، وعليه يقومُ اقتِصادُها الأَساسيُّ. ولا يحسبنَّ أَحدٌ أَنها كانت مجرَّدَ معاملاتٍ فرديَّةٍ في حدودٍ ضيِّقةٍ. فقد قامَتْ لقريشٍ تجارةٌ ضخمةٌ معَ الشَّامِ في رحلةِ الصَّيفِ، ومعَ اليمنِ في رحلَةِ الشِّتاءِ. وكانَت توظِّفُ في هذهِ التِّجارةِ رؤوسَ أَموالِ قريشٍ. ولا يجوزُ أَن ننسَىٰ أَنَّ قافلَةَ أَبي سُفيانَ الَّتي ترصَّدَ لها المسلمونَ في غزوةِ بدرٍ، ثمَّ أَفلتَتْ منهم، وقسمَ اللهُ لهم ما هو خيرٌ منها، كانَت تحوي أَلفَ بعيرٍ موسوقةً بالبضائعِ!

ولو كانَ الرِّبا مجرَّدَ معاملاتٍ فرديةٍ محدودةٍ، لا نظامًا شاملًا للحياةِ الاقتصاديةِ ما استحقَّ من اللهِ ـ سبحانَه ـ هذِه الحملَةَ المفزعَةَ المتكرِّرةَ في القرآنِ، ولا متابعةَ تلك الحملةِ من الرَّسولِ ﷺ في حديثِهِ!

هذه الأَموالُ، وهذِه الحركةُ التِّجاريةُ، وهذا الاقتصادُ الَّذي يقومُ عليها، كانَ يقومُ كلُّه علىٰ أَساسِ النِّظامِ الرِّبويِّ. وفيه تجمَّعتْ اقتصادِياتُ البلادِ تقريبًا قُبيلَ البعثةِ، فكذلك كانت تقومُ الحياةُ في المدينةِ. وأَصحابُ اقتصادِها هم اليهودُ. والرِّبا قاعدةُ اقتصادِ اليهودِ! وكانَ هذا «واقعًا اقتصاديًّا تقومُ عليه حياةُ البلادِ!

ثمَّ جاءَ الإسلامُ.. جاءَ يُنكِرُ هذا الأَساسَ الظالمَ الجارمَ؛ ويعرِضُ بدلَه أَساسًا آخرَ: أَساسَ الزَّكاةِ والقرضِ الحسَنِ والتَّعاونِ والتَّكافلِ.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤ ٢٨١].



ووجدَتِ الفطرةُ أَنَّ دعوةَ الله خيرٌ مما هيَ فيه. واشمأزَّت من الأَساسِ الهابطِ الَّذي يقومُ النظامُ الربويُّ عليه. ومعَ مشقَّةِ الانتقالِ في الأَوضاعِ الاقتصاديَّةِ الَّتي تقومُ عليها حياةُ النَّاسِ، فقد كانَت استجابةُ الفطرةِ أَقوىٰ من ثِقلِ «الواقع». وتطهَّرَ المجتمعُ المسلمُ من تلكَ اللَّوثةِ الجاهليَّةِ. وكانَ ما كانَ. وفقَ سنةِ الله الَّتي تتكرَّرُ كلما دُعِيَتِ الفطرةُ فانتفضَت من تحتِ الرُّكام والأَنقاضِ!

ونكتفِي في هذا الفصلِ بهذه الأَمثلةِ الثَّلاثةِ من مغالبةِ الفطرَةِ للواقعِ، وانتفاضِها من تحتِ الرُّكامِ والأَنقاضِ؛ وانتصارِها على الواقعِ الخارجيِّ الَّذي أَنشأته الجاهليَّاتُ.. وهي تمثِّلُ واقعَ العقيدةِ والتصوُّرِ. وواقعَ الأَوضاعِ والتقاليدِ. وواقعَ الاقتصادِ والتَّعاملِ.. وهي أَقوى أَلوانِ «الواقعِ» الَّذي يراه مَنْ لا يدرِكُونَ قوةَ العقيدةِ، وقوةَ الفطرةِ، وكأَنَّه هو الحقيقةُ السَّاحقةُ الَّتي لا قِبلَ بها لفطرةٍ ولا عقيدةٍ!

إنَّ الإسلامَ لم يقِف مستَسلمًا عاجزًا مكتوفَ اليدَينِ أَمامَ هذا «الواقعِ» ولكنَّه أَلغاهُ، أَو بدَّله، وأَقامَ مكانَه بناءَه السَّامِقَ الفريدَ، علىٰ أَساسِه القويِّ العميقِ.

وما حدثَ مرَّةً يمكِنُ أَن يحدُثَ مرَّةً أُخرىٰ. فقد حدثَ ما حدثَ وفقَ سنةٍ جاريةٍ، ولا وفقَ معجزةٍ خارقةٍ. وقد قامَ ذلك البناءُ علىٰ رصيدِ الفِطرةِ المدَّخرِ لكلِّ من يستنقِذُ هذا الرَّصيدَ، ويجمَعُه، ويوجِّهُه، ويطلِقُه في اتجاهِه الصَّحيح.

والبشريَّةُ اليومَ قد تكونُ أَقدرَ علىٰ هذا الاتجاهِ الصَّحيحِ. بما استقرَّ في تاريخِها وفي حياتِها من آثارِ ذلك المدِّ الأَوَّلِ، الَّذي واجَه أَقسى المعارضَةِ، ثمَّ انساحَ في طريقِه؛ وخلَّفَ من بعدِه أَعمَقَ الآثارِ..





رَصِيدُ التَّجرِبَة

عندَما واجهَ الإسلامُ البشريَّةَ ـ أَولَ مرَّةٍ ـ كانَ يواجِهُ هذا الواقعَ برصيدِ الفِطرَةِ وحدَه. كانَ رصيدُ الفطرةِ مع هذا الدِّينِ؛ على الرغمِ من الأَجيالِ الطويلةِ الَّتي انقضَتْ وهيَ تراكمُ فوقَه أَنقاضَ الواقعِ الجاهليِّ العريضِ.. ولكنَّ انتفاضَ الفطرةِ كان أَقوىٰ من كلِّ ذلكَ الركامِ؛ وكانَتِ استجابةُ الفطرةِ كافيةً لنفضِ ذلكَ الرُّكامِ.

وكانتْ تلكَ الفترةُ العجيبةُ. وكانت تلكَ القمَّةُ السَّامقَةُ، وكانَ ذلكَ الجيلُ الفارعُ. وكانتْ تلكَ المنارةُ الوضيئةُ.. كانَت ـ كما قلنا ـ قدَرًا من أَقدارِ الله، وتدبِيرًا من تدابِيره، لتتجسَّمَ هذه الصورةُ الفريدةُ، في أَوضاعِ حياةٍ واقعيَّةٍ، يمكِنُ ـ فيما بعدُ ـ الرُّجوعُ إليها في صورَتِها الواقعيَّةِ، ومحاولةُ تكرارِها علىٰ مدى الزَّمنِ، بقدرِ ما تتهيَّأُ لها البشريَّةُ!



إنها لم تكُن ثمرةً طبيعيةً لبيئَتِها ـ وقتذاكَ ـ ولكنَّها كانت ثمرةَ الرَّصيدِ المتجمِّعِ للفِطرةِ؛ عندَما وجدَتِ المنهَجَ والقيادةَ، والتربيةَ والحركةَ الَّتي تجمَعُ هذا الرصيدَ وتدفَعُه هذه الدَّفعةَ القويَّةَ..

ولكنَّ البشريَّةَ ـ بجملَتِها ـ لم تكُن قد تهيَّأت بعدُ للاستقامةِ طويلًا علىٰ تلكَ القمَّةِ السامقَةِ. الَّتي تسنَّمتها تلك الجماعةُ المختارةُ علىٰ عينِ الله.. فلما انساحَ الإسلامُ في مشارقِ الأَرضِ ومغارِبها بتلكَ السُّرعةِ العَجيبةِ الَّتي لم يعرفْ لها التَّاريخُ نظيرًا، ودخَلَ النَّاسُ في دينِ الله أَفواجًا، وأَصبحَتْ كثرةُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ليسَتْ هي الَّتي تلقَّتْ تلك التربيةَ الفريدةَ، العميقةَ البطيئةَ الَّتي تلقَّتها الجماعةُ المختارةُ..

لمَّا وقعَ هذا كلُّهُ أَخذَ ضغطُ الرَّواسبِ الجاهليَّةِ في نفوسِ الجماهيرِ الغفِيرةِ، والكثرةِ الكاثرةِ في جموعِ الأُمَّةِ الَّتي دانتْ للإسلامِ «يثـقـُلُ» ويجذِبُ الجسمَ كلَّه من تلكَ القمةِ السَّامقةِ، إلى الأرضِ المستويةِ! الجسمَ الَّذي لا يرفعُهُ إلىٰ تلكَ القمَّةِ السَّابقةِ إلَّا الوثبَةُ الكُبرىٰ، الَّتي وثبَتْها تلكَ الجماعةُ المختارةُ، بدفعَةِ التربيةِ الفريدةِ العميقَةِ البطيئةِ، الَّتي جمعَتْ رصيدَ الفِطرةِ وأطلقَتْه في هذا الاتجاهِ البعيدِ!

ومِن ثمَّ استوى المجتمَعُ المسلِمُ ـ قُرابةَ أَلفِ عامٍ ـ لا علىٰ تلكَ القمَّةِ السَّامقةِ؛ ولكن في مستوياتٍ متفاوتةٍ، كلها أَرفَعُ من مستوياتِ المجتمعاتِ الأُخرىٰ في أَرجاءِ الأَرضِ، وذلكَ معَ استمدادِ تلكَ المجتمعاتِ من ذلكَ المجتمَعِ الرَّفيعِ، كما شهِدَ التَّاريخُ المنصِفُ، وما أَقلَّ التَّاريخَ المنصِفَ!

تلكَ الوثبةُ الكُبرى الفريدَةُ في تاريخِ البشريَّةِ؛ وهذه الأَلَفُ عامٍ من المستوياتِ الرفيعَةِ.. لم تذهَبْ كلُّها سُدىٰ، ولم تتبدَّدْ من عالمِ الحياةِ ضَياعًا، ولم تتركِ البشريَّةَ بعدَها كما تسلَّمتْها من قبلُ.

كلا! فليسَ ذلكَ من سنَّةِ الله في الحياةِ والنَّاسِ. فالبشريَّةُ وحدةٌ متماسكةٌ علىٰ مدارِ الزَّمانِ، وجسمُ البشريَّةِ جسمٌ حيٌّ؛ ينتفِعُ بزادِ التَّجارِبِ، ويدَّخِرُ رصيدَ المعرفةِ؛ ومهما تجمَّعَ فوقَه ركامُ الجاهليَّةِ الَّتي ارتدَّت إليها البشريةُ؛ ومهما رانَ عليها العمىٰ والظَّلامُ؛ فإنَّ الرَّصيدَ باقٍ مكنونٌ، بل هو سارٍ في الجسمِ على العمومِ!

وإذا كانتِ الدَّعوةُ إلى الإسلامِ في المرَّةِ الأُولىٰ، لم تجِد إلَّا رصيدَ الفِطرةِ تواجِهُ بهِ واقعَ البشريَّةِ (وذلكَ دونَ أَن نُغفِلَ الرَّصيدَ



الضئيلَ المتبقِّيَ كالذُّبالةِ من بقايا الرِّسالاتِ الأُولى الَّتي كانَت رسالاتٍ في أَقوامٍ، ولم تكُن للبشرِ كافَّةً كالإسلامِ) فإنَّها اليومَ تجِدُ الىٰ جانبِ رصيدِ الفطرةِ المكنونِ، رصيدَ الموجةِ الأُولىٰ لهذا المنهَجِ الإلهيِّ في حياةِ البشريَّةِ جمعاءَ ـ من آمنَ بالإسلامِ، ومن دخَلَ في حكمِ الإسلامِ، ومن تأثَّرَ على البعدِ بالمدِّ الإسلاميِّ العريضِ ـ كما تجِدُ رصيدَ التَّجاربِ البشريَّةِ المريرَةِ، الَّتي عانَتْها في التِّيهِ، حين بعُدَتْ عن الله، وعانَتْ في ذلكَ التِّيهِ مرارةَ الحياةِ!

والمبادئُ والتصوُّراتُ، والقِيمُ والموازينُ، والنُّظمُ والأَوضاعُ، الَّتي واجه بها الإسلامُ البشريةَ أَولَ مرةٍ وليسَ معه إلَّا رصيدُ الفطرةِ فأَنكرَتها أَشدَّ الإنكارِ؛ وتنكَّرَت لها كُلَّ التنكُّرِ؛ وقاوَمَتها كلَّ المقاوَمةِ؛ لأَنَّها ـ يومذاكَ ـ كانَتْ غريبةً كلَّ الغرابةِ؛ وكانتِ المسافةُ بينَها وبين واقعِها سحيقةً هائلةً..

هذهِ المبادئُ والتصوُّراتُ، والقيَمُ والموازينُ، والأَنظمَةُ والأَوضاعُ، قد استقرَّتْ في حياةِ جماعةٍ من البشرِ ـ وهي في صورَتِها الكاملَةِ ـ فترةً من الزَّمانِ. ثمَّ استقرَّتْ في حياةِ العالمِ الإسلاميِّ العريضِ ـ في مستوياتٍ متفاوتَةٍ ـ فترةً طويلةً أُخرىٰ. ثمَّ

عُرِفتْ في حياةِ الجماعةِ البشريَّةِ كلِّها تقريبًا، خلالَ نيِّفٍ وثلاثمئةٍ وألفِ عامٍ.. عُرِفَتْ على الأَقلِّ دراسةً ورؤيةً وفرجةً! إن لم تُعرَفْ مزاولةً وعملًا وتجربةً!

ومن ثمَّ لم تعُدْ غريبةً ـ على البشريَّةِ ـ كما كانَتْ يومَ جاءَها بها الإسلامُ أَولَ مرةٍ. ولم تعُد مُنكرَةً في حسِّها وعُرفها كما كانَتْ يومذاك!

حقيقةً إنَّ البشريَّةَ لم تتذوَّقها قطُّ، كما تذوَّقَتها الجماعةُ المختارةُ، وفي تلكَ الفترَةِ الفريدةِ. وحقيقةً إنَّها حينَ حاولَتْ تطبيقَ بعضِها في أَزمنةٍ متفاوتةٍ ـ بما في ذلكَ العصرُ الحديثُ ـ لم تدرِكْ رُوحَها قطُّ، ولم تطبِّقها بهذه الرُّوحِ. وحقيقةً إنَّها ـ حتَّى اللحظةِ ـ ما تزالُ تطلُعُ وهيَ تدرُجُ في المرتقَى الَّذي وثبَتْ إليهِ الجماعةُ المسلمةُ الأُولىٰ..

كلُّ هذا صحيحٌ. ولكنَّ البشريَّةَ ـ بجملَتِها ـ من الناحيةِ التصوريةِ الفكريةِ ـ قد تكونَ أَقرَبَ الىٰ إدراكِ طبيعةِ ذلكَ المنهَجِ، وأقدَرَ علىٰ حملِه ـ كذلكَ ـ منها يومَ جاءَها أَوَّلَ مرةٍ، غريبًا عليها كلَّ الغرابةِ.



والأَمثلةُ المحدَّدةُ تقرِّبُ هذه الحقيقَةَ وتوضِحُها. ونحن نكتَفي بذكرِ القليلِ منها دونَ الإحاطةِ بها. وذلكَ لاعتبارَين هامَّين:

أَولُّهما: طبيعةُ هذا البحثِ المجمَلِ المختصَرِ؛ الَّذي لا يزيدُ علىٰ أَن يكونَ مجرَّدَ إشاراتٍ دالَّةٍ الىٰ عناصرِ الموضوعِ الكبيرِ الَّذي يتـناولُه موضوعُ «**هذا الدِّينِ**».

وثانيهما: أَنَّ الخطوطَ العريضةَ الَّتي تركَتْها موجةُ المدِّ الطويلةُ لهذا المنهجِ، في حياةِ البشريَّةِ كلِّها، وفي أَنحاءِ الأَرضِ جمِيعًا، أَكثَرُ عدَدًا، وأَضخَمُ أَثرًا، وأَوسَعُ مَساحةً، من أَن يحيطَ بها كاتبٌ واحدٌ، في بحثٍ واحدٍ، وفي عصرٍ واحدٍ. فهذِه الآثارُ قد ترسَّبتْ في حياةِ البشريَّةِ كلِّها، منذُ ذلكَ العهدِ البعيدِ؛ وشمِلَت حياةَ البشريَّةِ كلَّها علىٰ نطاقٍ واسعٍ؛ وتأَثَّرتْ به جوانبُ قد لا تكُونُ كلُّها ظاهرةً، وقد لا تكونُ كلُّها مما سجَّلته الملاحظةُ.

وإنه ليمكِنُ القولُ ـ علىٰ وجهِ الإجمالِ ـ إنَّ هذه الظَّاهرةَ الكونيَّةَ، الَّتي تجلَّتْ علىٰ هذا الكوكَبِ الأَرضي، وتمَّتْ في حياةِ هذِه البشريَّةِ.. وهي ظاهرةُ هذا الدِّينِ.. لم تدَعْ جانبًا واحدًا من حياةِ

البشريَّةِ منذُ ذلكَ التَّاريخِ، إلَّا وتجلَّتْ فيهِ وتركَتْ فيهِ تأْثيرًا تتفاوَتُ درجَاتُه، ولكنَّهُ واقعٌ لا شكَّ فيهِ. وإنَّ كلَّ حركةٍ من حركاتِ التَّاريخِ الكُبرىٰ قد استمدَّتْ مباشِرةً أَو غيرَ مباشِرةٍ من ذلكَ الحدثِ الكبيرِ؛ أَو بتعبيرٍ أَصحَّ من هذِه الظاهرةِ الكونيَّةِ الضَّخمةِ.

إنَّ حركةَ الإصلاحِ الدِّينيِّ الَّتي قامَ بها **(مارتن لوثر) و(كالفن)** في أَوربَّا. وحركةَ الإحياءِ الَّتي تقتاتُ منها أَوربَّا حتَّى اليومِ، وحركةِ تحطيمِ النِّظامِ الإقطاعيِّ في أَوربَّا، والانطلاقِ من حكمِ الأَشرافِ. وحركةَ المساواةِ وإعلانِ حقوقِ الإنسانِ الَّتي تجلَّتْ في **«الماجنا كارتا»** في انجلترا والثَّورةِ الفرنسيَّةِ في فرنسا. وحركةَ المذهبِ التجريبيِّ الَّتي قامَ عليها مجدُ أَوربَّا العلميُّ، وانبعثَتْ منها الفتوحاتُ العلميَّةُ الهائلةُ في العصرِ الحديثِ.. وأَمثالَها من الحركاتِ الكُبرىٰ، الَّتي يحسَبُها النَّاسُ أُصولًا في التطوُّرِ التَّاريخيِّ.. كلُّها قد استمدَّتْ من ذلكَ المدِّ الإسلاميِّ الكبيرِ، وتَأَثرَتْ به تَأَثرًا أَساسيًا عميقًا..

جاءَ في كتابِ «ضُحى الإسلامِ» للدكتور أَحمد أَمين:

(ظهَرَ بينَ النَّصارَىٰ نزعاتٌ يظهَرُ فيها أَثرُ الإسلامِ ـ من ذلكَ أَنَّه في القرنِ الثَّامنِ الميلاديِّ ـ أَي في القرنينِ الثَّاني والثَّالثِ الهجرِيين ـ ظهرَتْ في سبتِمَانيا (Septmania)[1] حركةٌ تدعُو إلىٰ إنكارِ الاعترافِ أَمامَ القُسسِ، وأن ليسَ للقُسسِ حقٌّ في ذلكَ؛ وأَن يضرَعَ الإنسانُ إلى الله وحدَهُ في غفرانِ ما ارتكَبَ من إثمٍ. والإسلامُ ليسَ له قسِّيسونَ ورُهبانٌ وأَحبارٌ. فطبيعيٌّ أَلا يكونَ فيه اعترافٌ!

وكذلكَ قامَت حركةٌ تدعو إلىٰ تحطيمِ الصوَرِ والتماثيلِ الدِّينيَّةِ (Iconoclasts). ذلكَ أَنَّه في القرنِ الثَّامنِ والتَّاسعِ للميلادِ ـ أَي: في القرنِ الثَّالثِ والرَّابعِ الهجريِّ ـ ظهرَ مذهبٌ نصرانيٌّ يرفُضُ تقديسَ الصُّورِ والتَّماثيلِ. فقد أَصدرَ الإمبراطورُ الرُّومانيُّ «ليو» الثَّالثُ أَمرًا سنةَ (٧٢٦م) يحرِّمُ فيه تقدِيسَ الصُّورةِ والتَّماثيلِ، وأَمرًا آخرَ في سنة (٧٣٠) يعدُّ الإتيانَ بهذا وثنيةً. وكذلكَ كانَ قسطنطِينُ الخامسُ وليو الرَّابعُ. علىٰ حينِ كانَ البابا «جريجوري الثَّاني والثَّالث» و«جرمانيوس» بطريركُ القُسطنطينيَّةِ،

---

(١) سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا علىٰ البحر الأبيض المتوسط.

والإمبراطـورةُ «إيرينـي» مِـن مُؤيـدِي عبـادَةِ الصُّـوَرِ. وجـرَىٰ بيـنَ الطائفَتَيـن نـزاعٌ شـديدٌ؛ لا محـلَّ لتفصيلِه.

وكلُّ ما نريدُ أَن نذكُرَه أَن بعضَ المؤرِّخينَ يذكُرونَ أَنَّ **الدَّعوةَ إلىٰ نبذِ الصُّورِ والتَّماثيلِ كانَت متأثِّرةً بالإسلامِ. ويقولونَ: إنَّ كلوديوس (Cloudius) أُسقُفَ تورينَ (الَّذي عيِّنَ سنةَ ٨٢٨م وحولَ ٢١٣هـ) والَّذي كانَ يحرِّقُ الصورَ والصُّلبانَ، وينهَىٰ عن عبادَتِها في أُسقفيَّته ولِدَ ورُبِّي في الأَندلسِ الإسلاميَّةِ.**

...كذلكَ وجدَتْ طائفةٌ من النَّصارىٰ، شرحَتْ عقيدةَ التَّثليثِ بما يقرِّبُ من الوحدانيَّةِ، وأَنكرَتْ أُلوهيَّةَ المسيحِ)[1].

وحينَما عادَتْ جيوشُ الصَّليبيينَ المتبربرَةُ مرتدَّةً عن الشَّرقِ الإسلاميِّ في القرنِ الحادي عشرَ الميلاديِّ، عادَتْ ومعها صورةٌ من حياةِ المجتَمَعِ الإسلاميِّ. وعلىٰ كلِّ ما كان قد وقَعَ من الانحرافاتِ في هذا المجتمَعِ، فإنَّ الظَّاهرةَ البارزةَ فيهِ ـ بالقياسِ إلىٰ

---

(١) «ضحىٰ الإسلام» : ص ١٦٤ـ١٦٥.



ذلكَ القطيعِ الصَّليبيِّ المتبربرِ ـ كانَت ظاهرةُ الشَّريعةِ الواحدةِ، الَّتي يخضَعُ لها الحاكمُ والمحكومُ؛ والَّتي لا تستمِدُّ من إرادةِ الشَّريفِ أَو هوىٰ صاحبِ الإقطاعيَّةِ .. كما كانَ الحالُ في أَوربَّا؛ وظاهرةَ الحريَّةِ الشخصيَّةِ في اختيارِ نوعِ العمَلِ ومكانِ الإقامةِ؛ وظاهرةَ الملكيَّةِ الفرديَّةِ وحريَّةِ الاستثمارِ، وظاهرةَ انعدامِ الطبقيَّةِ الوراثيَّةِ واستطاعةِ كلِّ فردٍ في أَيِّ وقتٍ أن يرتفِعَ بدرجَتِه في المجتمَعِ وفقَ جَدِّهِ واجتهادِه وعمَلِه. هذه الظواهرُ البارِزَةُ، الَّتي لا تُخطِئها عينُ الأَوربيِّ الَّذي كانَ يعيشُ في نظامِ الإقطاعِ، رقيقًا للأَرضِ، قانونُه هو إرادةُ السيِّدِ، وطبقَتُه حتميَّةٌ؛ لأَنَّ «**الشرفَ**» وراثيٌّ!

ومن هُنا ـ بمساعدَةِ العواملِ الاقتصاديَّةِ الأُخرىٰ في حياةِ المجتمَعِ الأَوربيِّ ـ انطلقَتِ الصَّيحاتُ الَّتي حطَّمتِ النِّظامَ الإقطاعيَّ تدريجيًا؛ وأَعلنَتْ تحريرَ الأَفرادِ من رقِّ الأَرضِ. وإن لم تحرِّرْهم من سائرِ القيودِ الأُخرىٰ. ولم ترفَعْ مجتَمعَهم إلىٰ مستَوى المجتمعِ الإسلاميِّ!



ومن جامعاتِ الأَندلسِ، ومن تأَثيرِ حضارةِ الشَّرقِ الإسلاميِّ، الَّتي أَصبحَتْ حضارةً عالميَّةً، ومن الترجماتِ الأَوربيَّةِ لتراثِ العالمِ الإسلاميِّ انبثقَتْ حركةُ الإحياءِ الأَوروبيَّةُ في القرنِ الرابعَ عشرَ وما تلاهُ. وانبثقَتْ كذلكَ الحركةُ العلميَّةُ الحديثةُ، وبخاصَّةٍ الطريقةُ التجريبيَّةُ.

يقـــولُ «**بريفـولت**» مـؤلِّفُ كـتابِ: «**بناءُ الإنسـانيَّةِ**» (Making of Humanity):

(لقد كانَ العلمُ أَهمَّ ما جاءَتْ بهِ الحضارةُ العربيَّةُ[1] على العالمِ الحديثِ، ولكنَّ ثمارَه كانَتْ بطيئةَ النُّضجِ.. إنَّ العبقريَّةَ الَّتي ولدَتْها ثقافةُ العربِ في إسبانيا، لم تنهَضْ في عنفوانِها إلَّا بعدَ وقتٍ طويلٍ علىٰ اختفاءِ تلكَ الحضارةِ وراءَ سحُبِ الظلامِ، ولم يكُنِ العلمُ وحدَهُ هو الَّذي أَعادَ إلىٰ أَوربَّا الحياةَ. بل إنَّ مؤثراتٍ أُخرىٰ كثيرةً من مؤثِّراتِ الحضارَةِ الإسلاميَّةِ بعثَتْ باكورَةَ أَشِعَّتِها

(١) يلاحَظُ أن الكُتَّابَ الغربيين يحرِصون علىٰ تسميةِ الحضارةِ الإسلاميةِ باسم الحضارةِ العربيَّةِ. وذلك عن خبثٍ ومكرٍ منهم. فكلمةُ إسلامية. ثقيلةٌ علىٰ قلوبهم. وهم بهذا يريدونَ حصرَ الإسلاميَّةِ في العربيةِ. الإسلاميةُ أوسَعُ من هذا النِّطاقِ الضيِّقِ الصغيرِ. وهم يريدونَ كذلكَ إحياءَ العنصريةِ البغيضةِ بين الجماعاتِ الإسلاميَّةِ الَّتي أماتها الإسلامُ. وكلها أغراضٌ ماكرةٌ خبيثَةٌ!!!



إلى الحياةِ الأَوربيَّةِ. فإنَّه على الرغمِ من أَنه ليسَ ثمةَ ناحيةٌ واحدةٌ من نواحي الازدهارِ الأَوربي إلَّا ويمكِنُ إرجاعُ أَصلِها إلىٰ مؤثراتِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ بصورةٍ قاطعةٍ، فإنَّ هذه المؤثِّراتِ توجَدُ أَوضَحَ ما تكونُ، وأَهمَّ ما تكونُ، في نشأةِ تلك الطاقةِ، الَّتي تكوِّنُ ما للعالمِ الحديثِ من قوةٍ مُتمايزةٍ ثابتةٍ، وفي المصدَرِ القويِّ لازدهارِه: أَي في العلومِ الطبيعيَّةِ، وروحِ البحثِ العلميِّ).

ويستطرِدُ فيقولُ:

(إنَّ ما يدينُ به علمُنا لعلمِ العرَبِ ليسَ فيما قدَّمُوه إلينا من كشوفٍ مُدهِشَةٍ لنظريَّاتٍ مبتكرةٍ، بل يدينُ هذا العلمُ إلى الثقافةِ العربيَّةِ بأَكثرَ من هذا: إنَّه يدينُ لها بوجودِه نفسِه. فالعالمُ القديمُ ـ كما رأينا ـ لم يكُنْ للعلمِ فيه وجودٌ، وعلمُ النجومِ عندَ اليونانِ ورياضيَّاتهم كانَتْ علومًا أَجنبيةً، استجلَبُوها من خارجِ بلادِهم؛ وأَخذُوها عن سواهم؛ ولم تتأقلَمْ في يومٍ من الأَيَّامِ، فتمتزِجَ امتزاجًا كليًّا بالثَّقافةِ اليونانيَّةِ.

وقد نظَّمَ اليونانُ المذاهبَ، وعمَّموا الأَحكامَ، ووضعُوا النظريَّاتِ. ولكنَّ أَساليبَ البحثِ في دأَبٍ وأَناةٍ، وجمعَ المعلوماتِ الإيجابيَّةِ وتركيزَها، والمناهجَ التفصيليَّةَ للعلمِ، والملاحظةَ الدقيقةَ المستمرَّةَ، والبحثَ التجريبيَّ.. كلُّ ذلك كان

غريبًا تمامًا عن المزاجِ اليونانيِّ. أَمَّا ما ندعُو «العلمَ» فقد ظَهَرَ في أَوربَّا نتيجةً لروحٍ من البحثِ جديدةٍ، ولطرقٍ من الاستقصاءِ مُستحدَثةٍ. من طرُقِ التجربةِ والملاحظَةِ والمقاييسِ، ولتطوُّرِ الرياضياتِ إلىٰ صورةٍ لم يعرِفْها اليونانُ.. وهذه الرُّوحُ، وتلكَ المناهِجُ العلميَّةُ أَدخلَها العربُ إلى العالمِ الأوروبيِّ)[1].

وقبلَ ذلك يقولُ:

(وإنَّ «روجر بيكون» درَسَ اللُّغةَ العربيَّةَ والعِلمَ العربيَّ في مدرسةِ «أُكسفورد» علىٰ خلفاءِ معلِّميهِ العربِ في الأَندلس. وليسَ لـ«ردجر بيكون» ولا لسمِيِّه «فرنسيس بيكون» الَّذي جاءَ بعدَه الحقُّ في أَن يُنسَبَ إليهما الفضلُ في ابتكارِ المنهَجِ التجريبيِّ. فلم يكن (ردجر بيكون) إلَّا رسولًا من رسلِ العلمِ والمنهَجِ الإسلاميينِ إلىٰ أَوربا المسيحيَّةِ. وهو لم يملَّ قطُّ من التَّصريحِ بأَن تعلُّمَ معاصريه للُّغةِ العربيَّةِ وعلومِ العربِ هو الطَّريقُ الوحيدُ للمعرفَةِ الحقَّةِ. والمناقشاتُ الَّتي دارَتْ حولَ واضِعي المنهجِ التجريبيِّ هي طرفٌ من التحريفِ الهائلِ لأُصولِ الحضارةِ الأَوربيَّةِ.

---

(١) عن كتاب: «تجديد التفكير الدِّيني في الإسلام» تأليف محمد إقبال. وترجمة الأستاذ عباس محمود: ص ١٤٩ـ١٥٠.



وقد كان منهَجُ العربِ في عصرِ (بيكون) قد انتشَرَ انتشارًا واسعًا، وانكبَّ النَّاسُ في لهَفٍ علىٰ تحصيلِهِ في ربوعِ أَوربَّا.

من أَينَ استَقىٰ (ردجر بيكون) ما حصَّله من العلومِ؟

«من الجامعاتِ الإسلاميَّةِ في الأَندلسِ. والقسمُ الخامسُ من كتابِه (Cepus Majus) الَّذي خصَّصه للبحثِ في البصريَّاتِ، هو في حقيقةِ الأَمرِ نُسخةٌ من كتابِ «المناظرِ لابنِ الهيثَمِ»)[1].

ويقولُ درابر الأُستاذُ بجامعةِ نيويورك في كتابِهِ: «النِّزاعُ بين العلمِ والدِّينِ»:

(تحقَّقَ علماءُ المسلمينَ من أَنَّ الأُسلوبَ العقليَّ النظريَّ لا يؤدِّي إلى التقدُّمِ؛ وأنَّ الأَملَ في وجدانِ الحقيقةِ يجبُ أَن يكونَ معقودًا بمشاهدَةِ الحوادثِ ذاتها. ومن هُنا كان شعارُهم في أَبحاثِهم، الأسلوبَ التَّجريبيَّ، والدستورَ العمليَّ الحسِّيَّ.

«إنَّ نتائجَ هذه الحركَةِ العمليَّةِ تظهرُ جليَّةً في التقدُّمِ الباهرِ الَّذي نالتهُ الصَّنائعُ في عصرِهم، وإننا لَنَدْهشُ حين نرىٰ في مؤلَّفاتهم من الآراءِ العلميَّةِ، ما كنَّا نظنُّهُ من نتائجِ العلمِ في هذا العصرِ. ومن ذلكَ

(١) «تجديد التفكير الدِّيني في الإسلام» : ص١٤٨ .

أَنَّ مذهبَ النُّشوءِ والارتقاءِ للكائناتِ العضويَّةِ ـ الَّذي يعتَبرُ مذهبًا حديثًا ـ كانَ يُدرَّسُ في مدارِسِهم. وقد ذهبُوا فيه إلىٰ أَبعَدَ مما وصلْنا إليهِ. وذلكَ بتطبيقِه على الجوامدِ والمعادنِ(١).. وقد استخدَمُوا علمَ الكيمياءِ في الطبِّ، ووصلُوا في علمِ الميكانيكا إلىٰ أَنهم عرفُوا

(١) يجبُ الاحتراسُ من مثل هذا القولِ، الَّذي يلقيهِ المؤلِّفون الغربيُّونَ، في معرِضِ إنصافهم للإسلامِ والتفكيرِ الإسلاميِّ. فمذهَبُ النُّشوءِ والارتقاءِ كما قرَّره داروِن وولاس، شيءٌ آخرُ غيرُ ما قرَّره المسلمونَ في بحثِهم العلميِّ المؤمنِ البريءِ من لوثَةِ الهروبِ من الكنيسَةِ ومن إلهِ الكنيسَةِ في العالم الغربيِّ! وقد لاحظَ علماءُ المسلمينَ التدرُّجَ بينَ مراتبِ الخلائقِ. وبدأوا من صفاتِ المادةِ الجامدةِ ورأوا أنها تنتَهِي عندَ أوَّلِ مراتبِ الحياةِ النباتيَّةِ، ورأوا أن هذِه تنتَهِي عند أوَّلِ مراتبِ الحياةِ الحيوانيَّةِ. ثمَّ ترقَّىٰ هذه الحياةُ. ولكنَّهم ردُّوا كلَّ ذلكَ إلىٰ تقديرِ الله وفاعليَّةِ الله. أما دارون فقد حرَصَ علىٰ نفيِ تدخُّلِ أيِّ عنصرٍ غيبيٍّ في النشوءِ والارتقاءِ. لأنه كانَ هاربًا من الكنيسَةِ، ومن إلهِ الكنيسَةِ الَّذي باسمِهِ نَضطهَدُ العلمَ والبحثَ العلميَّ علىٰ الإطلاقِ.. كذلكَ لم تتطرَّق إلىٰ بحوثِ علماءِ المسلمينَ لوثةُ تحقيرِ الإنسانِ وتجريدِه من كلِّ عنصرٍ روحيٍّ وردِّه إلىٰ أصلٍ حيوانيٍّ. فالنظريةُ الإسلاميَّةُ صريحةٌ في أن الإنسانَ خلقٌ مستقلٌ. وإن كانَ يجلِسُ علىٰ قمةِ مراتِبِ الكائناتِ الحيَّةِ من حيثُ تكوينُه العضويُّ واستعدادُه العقليُّ والروحيُّ. ولكنه كانَ هكذا لأنَّ الله ـ سبحانَه ـ أنشأهُ ابتداءً كما أنشَأَ سائرَ الخلائقِ في مراتِبِها الَّتي وجِدَتْ عليها.. فهناكَ فارقٌ كبيرٌ في أصلِ النَّظرةِ معَ سبقِ المسلمينَ في البحثِ العلميِّ.



وحدَّدُوا قوانينَ سقوطِ الأَجسامِ، وكانوا عارِفِينَ كلَّ المعرفةِ بعلمِ الحركةِ؛ ووصلُوا في نظريَّاتِ الضوءِ والإبصارِ إلىٰ أَن غيَّروا الرأيَ اليونانيَّ القائلَ بأَن الإبصارَ يحصُلُ بوصولِ شعاعٍ من البصرِ الى الجسمِ المرئيِّ، وقالوا بالعكسِ. وكانوا يعرفونَ نظريَّاتِ انعكاسِ الأَشعَّةِ وانكِسَارِها. وقدِ اكتشَفَ الحسنُ بن الهيثَمِ الشكلَ المنحني الَّذي يأخذُه الشُّعاعُ في سيرِه في الجوِّ؛ وأَثبتَ بذلك أَننا نرَى القمرَ والشَّمسَ قبل أَن يظهَرا حقيقةً في الأُفقِ؛ وكذلك نراهُما في المغرِبِ بعد أَن يغيبا بقليلٍ»[١].

ونكتفِي بهذا القدرِ من الآثارِ الواقعيَّةِ للمنهجِ الإسلاميِّ وللحياةِ الإسلاميَّةِ، في تاريخِ البشريَّةِ، وفي الحركاتِ العالميَّةِ الكُبرىٰ. نكتَفِي بهذا القدرِ بوصفِه مجرَّدَ إشارةٍ إلىٰ هذِه الحقيقَةِ الضَّخمةِ الممتدَّةِ الأَطرافِ الَّتي كثيرًا ما ننساها ونحن نشهَدُ البناءَ الحضاريَّ الرَّاهنَ؛ ويخيَّلُ إلينا ـ في سذاجة وغَفلة ـ أَنه لا نصيبَ

(١) عن كتاب: «الإسلام دين علم خالد» للأستاذ محمد فريد وجدي، ص ٢٣٣، طبعة ثانية.

لنا فيه، ولا أَثرَ لنا في نشأتِه؛ وأَنَّه شيءٌ أَضخَمُ منا ومن تاريخِنا الَّذي نجهَلُه مع الأَسفِ الشَّديدِ؛ ثمَّ نتلقَّاه من أَفواهِ أَعدائنا؛ الَّذين لا همَّ لهم إلَّا أَن يملؤوا قلوبَنا باليأسِ من إمكانِ الحياةِ الإسلاميَّةِ، وفقَ المنهجِ الإسلاميِّ. وهم أَصحابُ مصلحةٍ في هذا اليأسِ؛ لأَنَّه يؤمِّنُهم من الكَرَّةِ عليهم، ومن استردادِ زمامِ القيادةِ العالميَّةِ منهم.. فما بالنا نحنُ نرىٰ يا تُرَىٰ! نتلقَّفُ ما يقولونَهُ، ونردِّدُه كالببغاواتِ والقرودِ؟

وعلىٰ أَيٍّ فهذا ليسَ موضوعنا هنا. إنَّما نحنُ نمهِّدُ بهذه الإشارةِ إلىٰ إشارةٍ أُخرىٰ نحوَ الخُطوطِ العريضَةِ الَّتي خطَّها المدُّ الإسلاميُّ الأَوَّلُ، وعرَّفَها للبشريَّةِ؛ فأَصبحَتِ البشريَّةُ اليومَ أَقدرَ علىٰ إدراكِها وتصوُّرِها. وهي الرَّصيدُ الجديدُ الَّذي يُضافُ إلىٰ رصيدِ الفطرَةِ القديمِ!





خُطُوطٌ مُسْتَقِرَّة

عندما انحسرَتْ موجةُ المدِّ الإسلاميِّ العاليةُ عن هذه الأَرضِ؛ وحينما استردَّتِ الجاهليَّةُ زِمامَ القيادةِ، الَّتي كانَ الإسلامُ قد انتزَعها منها؛ وعندَما عادَ الشَّيطانُ ينفُضُ غبارَ المعركَةِ عن كاهلِهِ، وينهَضُ من عثرَتِه، ويهتِفُ لحزبِهِ الَّذي عادَ يتسلَّمُ الزمامَ!

عندَما حدَثَ هذا كلُّهُ لم ترتدَّ حياةُ البشريَّةِ تمامًا إلىٰ أَوضاعِها المتخلِّفةِ في الجاهليةِ الأُولىٰ.. لقدْ كانَ الإسلامُ هناك ـ حتَّىٰ وهو يتراجَعُ عن مكانِ الصَّدارةِ في الأَرضِ ـ وكانتْ هنالكَ من ورائه خطوطٌ عريضةٌ، ومبادئُ ضخمةٌ، قد استقرَّتْ في حياةِ البشريَّةِ، وصارَتْ مأْلوفةً للنَّاسِ، وزالَتْ عنها الغرابَةُ الَّتي استقبَلُوها بها يومَ جاءَهم بها الإسلامُ أَولَ مرَّةٍ.

هذهِ الخطوطُ العريضَةُ، وهذه المبادئُ الضخمَةُ هي الَّتي

سنحاوِلُ الإشارةَ إلىٰ نماذِجَ قليلةٍ منها في هذا الفصلِ علىٰ سبيلِ الإجمالِ.

* إنسانيةٌ واحدةٌ:

من العصبيَّةِ القبَليَّةِ، بل عصبِيَّةِ العشيرةِ، بل عصبيَّةِ البيتِ، الَّتي كانَتْ تسودُ الجزيرةَ العربيَّةَ.. ومن عصبيَّةِ البلدِ، وعصبيَّةِ الوطَنِ؛ وعصبيَّةِ اللَّونِ؛ وعصبيَّةِ الجِنسِ.. الَّتي كانَتْ تسودُ وجهَ الأَرضِ كلِّهِ..

من هذِهِ العصبيَّاتِ الصَّغيرةِ الَّتي لم تكُنِ البشريَّةُ تتصوَّرُ غيرَها في ذلكَ الزَّمانِ، جاءَ الإسلامُ ليقولَ للنَّاسِ: إنَّ هناكَ إنسانيَّةً واحدةً، ترجعُ إلىٰ أَصلٍ واحدٍ، وتتَّجِهُ إلى إلهٍ واحدٍ. وإنَّ اختلافَ الأَجناسِ والأَلوانِ، واختلافَ الرُّقعةِ والمكانِ، واختلافَ العشائرِ والآباءِ.. كلُّ أُولئكَ لم يكُنْ، ليتفرَّقَ النَّاسُ ويختَصِموا، ويتحَوصَلُوا وينعزِلُوا. ولكِنْ ليتعارَفُوا ويتآلفوا؛ وتتوزَّعَ بينَهُم وظائفُ الخلافةِ في الأرضِ؛ ويرجِعُوا بعدَ ذلكَ إلى الله الَّذي ذرأَهُمْ في الأرضِ واستخلفَهم فيها. وقالَ لهم اللهُ ـ سبحانَه ـ في القرآنِ الكريمِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ولم تكُنْ هذِه مبادئ نظريَّةً؛ ولكنَّها كانَتْ أَوضاعًا عمليَّةً.. لقدِ انساحَ الإسلامُ في رقعةٍ من الأَرضِ فسيحَةٍ؛ تكادُ تضمُّ جميعَ الأَجناسِ وجميعَ الأَلوانِ.. وذابَتْ كلُّها في النظامِ الإسلاميِّ. ولم تقِفْ وراثةُ لونٍ، ولا وراثةُ جنسٍ، ولا وراثةُ طبقَةٍ، ولا وراثةُ بيتٍ، دونَ أَن يعيشَ الجميعُ إخوانًا؛ ودونَ أَن يبلُغَ كلُّ فردٍ منهم ما تؤهِّلُه له استعداداتُه الشخصيَّةُ. وما تكفُلُه له صفَتُه الإنسانيَّةُ.

واستقرَّ هذا الخطُّ العريضُ في الأَرضِ؛ بعد أَن كانَ غريبًا فيها أَشدَّ الغرابةِ، ومُستنكرًا فيها كلَّ الاستنكارِ.. وحتَّىٰ بعد انحسارِ المدِّ الإسلاميِّ لم تستَطِعِ البشريَّةُ أَن تتنكَّرَ له كلَّ التنكُّرِ؛ ولم تعُدْ تستغرِبُه كلَّ الاستغرابِ..

حقيقة: إنَّها لم تستَطِعْ أَن تتمثَّلَه كما تمثَّلته الجماعةُ المسلمةُ، ولم يستقِرَّ فيها استقرارَه في المجتمَعِ الإسلاميِّ.

وحقيقة: إنَّ عصبياتٍ شتَّىٰ صغيرةً ما تزالُ تعيشُ عصبيَّاتِ الأَرضِ والوطَنِ. وعصبيَّاتِ الجنسِ والقومِ. وعصبيَّاتِ اللَّونِ واللِّسانِ.

وحقيقة: إنَّ الملونينَ في أَمريكا وجنوبِ إفريقيا يؤلِّفونَ مشكلةً حادَّةً بارزةً، كما يؤلِّفونَ مشكلةً ناعمةً مستترةً في أَوربَّا كُلِّها!

ولكِنَّ فكرةَ الإنسانيةِ الواحدةِ ما تزالُ خطًّا عريضًا في هتافاتِ البشريَّةِ اليومَ، وما يزالُ هذا الخطُّ الَّذي خطَّهُ الإسلامُ هو أَصلَ التَّفكيرِ البشريِّ ـ من النَّاحيَّةِ النظريَّةِ ـ وما تزالُ تلك العصبيَّاتُ الصغيرةُ تبزُغُ وتختَفِي؛ لأَنَّها ليسَتْ أَصيلةً ولا قويمَةً!

لقد انحسَرَ المدُّ الإسلاميُّ الأَوَّلُ، الَّذي استمدَّ من رصيدِ الفطرَةِ وحدَهُ ما خطَّ بِهِ هذا الخطَّ العريضَ. ولكنَّه ترَكَ للمدِّ التالي رصيدَ الفطرَةِ ورصيدَه الذَّاتيَّ. لتستمِدَّ منه الجولةُ القادمةُ. والبشريَّةُ أَكثرُ إدراكًا، وأكثرُ استعدادًا، وقد زالَتْ عنها دهشَةُ المفاجأةِ بهذا الخطِّ الجديدِ!!



*** إنسانيَّةٌ كريمةٌ:**

وجاءَ الإسلامُ والكرامةُ الإنسانيَّةُ وقفٌ علىٰ طبقاتٍ معينَةٍ، وعلىٰ بيوتٍ خاصَّةٍ، وعلىٰ مقاماتٍ معروفةٍ.. أَمَّا الغثاءُ. غثاءُ

الجماهيرِ. فهو غثاءٌ! لا وزنَ له ولا قيمَةَ، ولا كرامةَ! غثاءٌ!!

وقالَ الإسلامُ كلمَته المدويَّةَ: إن كرامةَ الإنسانِ مُستمدَّةٌ من «**إنسانيَّتِه**» ذاتِها لا من أيِّ عرضٍ آخرَ كالجنسِ، أَو اللَّونِ، أَو الطبَقةِ، أَو الثَّروةِ، أَو المنصِبِ.. إلىٰ آخرِ هذِه الأعراضِ العارضَةِ الزائلَةِ.. والحقوقُ الأَصيلةُ للإنسانِ مستمدَّةٌ إذنْ من تلكَ الإنسانيَّةِ. الَّتي ترجِعُ إلىٰ أَصلٍ واحدٍ كما أَسلَفْنا.

وقالَ لهم اللهُ في القرآنِ الكريمِ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وعلِمَ النَّاسُ منذُئذٍ: أَنَّ الإنسانَ ـ بجنسِه ـ كريمٌ على الله، وأَنَّ كرامتَه ذاتيَّةٌ أَصيلَةٌ؛ لا تتبَعُ جنسَهُ، ولا لونَهُ، ولا بلدَهُ، ولا قومَهُ، ولا عشيرتَهُ، ولا بيتَهُ. ولا عرضًا من هذهِ الأَعراضِ الزائلَةِ الرخيصَةِ.



إنَّما تتبَعُ كونَهُ إنسانًا من هذا الجنسِ الَّذي أَفاضَ عليه ربُّه التَّكريمَ.

ولم تكُنْ هذه مبادئَ نظريةً، إنَّما كانتْ واقعًا عمليًّا، تمثَّلَ في حياةِ الجماعةِ المسلمَةِ، وانساحَتْ به في أَرجاءِ الأَرضِ، فعلَّمَته للنَّاسِ، وأَقرَّته في أَوضاعِ حياتِهم كذلكَ. وعلَّمَت جمهورَ النَّاسِ.. ذلكَ الغثاءَ.. أَنَّه كريمٌ، وأنَّ له حقوقًا، هيَ حقوقُ الإنسانِ، وَأَنَّ له أَن يحاسِبَ حكامَهُ وأُمراءَهُ، وأَنَّ عليه أَلَّا يقبَلَ الذلَّ والضَّيمَ والمهانةَ، وعلَّمتِ الحكَّامَ والأُمراءَ أَلَّا تكونَ لهم حقوقٌ زائدةٌ علىٰ حقوقِ الجماهيرِ من النَّاسِ، وأَنَّه ليسَ لهم أَن يُهينوا كرامةَ أَحدٍ ممن ليسَ بحاكمٍ ولا أَميرٍ.

وكانَ هذا ميلادًا جديدًا «**للإنسانِ**».. ميلادًا أَعظَمَ من الميلادِ الحسيِّ.. فما الإنسانُ إذا لم تكُن له حقوقُ الإنسانِ وكرامةُ الإنسان؟ وإذا لم تكُنِ الحقوقُ متعلِّقةً بوجودِه ذاتِه، وبحقيقَتِه الَّتي لا تتخلَّفُ عنه في حالٍ من الأَحوالِ؟

ـ بدأَ أَبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عهدَه بقولِه:

(لقدْ وُلِّيتُ عليكُم ولستُ بخيرِكم. فإنْ أَحسنْتُ فأَعينوني. وإن أَسأتُ فقوِّموني. أَطيعوني ما أَطعتُ اللهَ ورسولَهُ. فإنْ عصيتُهُ فلا طاعةَ لي عليكُم).

ـ وخطبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه فقالَ يُعلِّمُ النَّاسَ حقوقَهم تجاهَ الأُمراءِ: «يا أيُّها النَّاسُ! إنِّي واللهِ ما أُرسِلُ إليكُم عُمَّالًا ليضرِبوا أَبشارَكم. ولا ليأْخُذوا من أَموالِكُم. ولكنِّي أُرسِلُهم إليكُم ليعلِّموكم دينكم وسنَّتكم؛ فمَن فُعِلَ به شيءٌ من ذلكَ فليرفَعه إليَّ. فوالَّذي نفسُ عمرَ بيدِه لأُقِصنَّهُ منه..» .

فوثبَ عمرُو بن العاص، فقالَ:

«يا أَميرَ المؤمنينَ! أَرأَيْتُكَ إنْ كانَ رجلٌ من أُمراءِ المسلمِينَ علىٰ رعيَّتِه، فأدَّبَ بعضَ رعيَّتِه. إنَّكَ لتقصُّ منه؟».

«قالَ عمرُ: إيْ والَّذي نفسُ عمرَ بيدِه. إذًا لأُقِصَّنه منه. وكيفَ لا أُقِصُّ منه. وقد رأَيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقصُّ من نفسِهِ؟ أَلا لا تضرِبوا النَّاسَ فتذِلُّوهم. ولا تجمِّرُوهم[1] فتفتِنُوهم، ولا تمنَعُوهم حقوقَهم فتكفِّرُوهم».

ـ وكتبَ عثمانُ رضي الله عنه إلىٰ جميعِ الأَمصارِ كتابًا قالَ فيهِ:

«إنِّي آخُذ عمَّالي بموافاتي كلَّ موسمٍ، وقد سلَّطتُ الأُمَّةَ على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ؛ فلا يُرفَعُ عليَّ شيءٌ ولا علىٰ أَحدٍ من عُمَّالي إلَّا أَعطيتُهُ. وليسَ لي ولا لعُمَّالي حقٌّ قبلَ الرعيَّةِ إلَّا

(١) «لا تجمروهم» : لا تبعدوهم طويلاً عن بيوتهم وأزواجهم.



متروكٌ لهم. وقد رفَعَ إليَّ أَهلُ المدينةِ أَنَّ أَقوامًا يُشتَمون ويُضرَبون. فمن ادَّعىٰ شيئًا من ذلكَ فليوافِ الموسِمَ، يأْخُذْ حقَّه حيثُ كانَ، منِّي أَو من عُمَّالي، أَو تصدَّقوا، إنَّ اللهَ يجزي المتصدِّقينَ).

والمهمُّ ـ كما أَسلفنا ـ أَنَّ هذِه لم تكُن مجرَّدَ مبادئ نظريَّةٍ؛ أَو مجرَّدَ كلماتٍ تُقالُ. فقد طُبِّقتْ تطبيقًا واقعيًا؛ وسرَتْ في أَوساطِ الشُّعوبِ حتَّىٰ اتُّخذَتْ قاعدةً للأوضاعِ العمليَّةِ.

وحادثةُ ابنِ القبطيِّ الَّذي سابقَ ابنَ عمرِو بن العاصِ، فاتحِ مصرَ ووالِيها فسبقَهُ فضربَه ابنُ عمرٍو، فشكا أَبوه إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه فأقصَّه منه في موسمِ الحجِّ وعلىٰ ملأٍ من النَّاسِ.. حادثةٌ معروفةٌ.

وقد اعتادَ الكُتَّابُ أَن يقِفُوا فيها عندَ عدلِ عمرَ.. ولكنَّ الحادثةَ أَوسَعُ دِلالةً علىٰ ذلكَ التَّيارِ التَّحررِيِّ الَّذي أَطلقَهُ الإسلامُ في ضمائرِ النَّاسِ وفي حياتهم..

فمصرُ إذ ذاكَ بلدٌ مفتوحٌ، حديثُ عهدٍ بالفتحِ وبالإسلامِ. وهذا القبطيُّ قبطيٌّ لم يزَلْ علىٰ دينِهِ، فردًا من جماهيرِ البلَدِ المفتوحِ. وعمرُو بنُ العاصِ هو فاتحُ هذا الإقليمِ، وأَوَّلُ أَميرٍ عليهِ من قِبَلِ الإسلامِ.. وحكامُ هذا الإقليمِ قبلَ الفتحِ الإسلاميِّ هم الرُّومانُ أَصحابُ السِّياطِ الَّتي تجلِدُ ظهورَ شعوبِ المستعمراتِ! ولعلَّ ذلكَ

القبطِيَّ كانَ ما يزالُ ظهرُهُ يحمِلُ آثارَ سياطِ الرُّومانِ!

ولكنَّ المدَّ التحرُّريَّ الَّذي أَطلقَه الإسلامُ في أَنحاءِ الأَرضِ، أَنسَىٰ ذلكَ القبطِيَّ سياطَ الرُّومانِ وذُلَّها؛ وأَطلقَه إنسانًا حرًّا كريمًا؛ يغضَبُ لأَن يضرِبَ ابنُ الأَميرِ ابنَه، بعد اشتراكِهما في سباقٍ، وهذه أُخرىٰ، ثمَّ تحمِلُه هذِه الغضبَةُ لكرامةِ ابنِه الجريحَةِ علىٰ أَن يركَبَ من مصرَ إلى المدينةِ، لا طيارةَ ولا سيارةَ ولا باخرةَ ولا قطارًا، ولكِن جملًا، يخِبُّ به ويضَعُ الأَشهرَ الطِّوالَ، كلُّ ذلكَ ليشكُو إلى الخليفَةِ.. الخليفَةِ الَّذي حرَّره يومَ فتحِ بلدِه تحتَ رايةِ الإسلامِ! والَّذي علَّمَه الكرامةَ بعدَ أَن نسِيَها تحتَ وقعِ سياطِ الرُّومانِ!

وهكذا ينبغِي أَن نفهَمَ؛ وأن ندرِكَ عمقَ المدِّ الإسلاميِّ التحرُّريِّ فليسَتِ المسأَلةُ فقط أَن عمرَ عادلٌ؛ وأَنَّ عدلَهُ لا تتطاولُ إليهِ الأَعناقُ في جميعِ الأَزمانِ، ولكنَّ المسألةَ بعدَ ذلكَ أَنَّ عدلَ عمرَ ـ المستمدَّ من الإسلامِ ومنهَجِه ونظامِهِ ـ قد انطلَقَ في الأَرضِ تيَّارًا جارِفًا محرِّرًا مكرِّمًا للإنسانِ.. بصفَتِه **«الإنسان»**..

هذا المستوى الرفيعُ لم ترتفِعْ إليه الإنسانيَّةُ قطُّ.. هذا صحيحٌ.. ولكنَّ هذا الخطَّ العريضَ الَّذي خطَّهُ الإسلامُ، في كرامةِ الإنسانِ وحريَّتِه وحقوقِه تجاهَ حُكَّامِه وأُمرائه، قد ترَكَ في حياةِ البشريَّةِ آثارًا

لا شكَّ فيها. وبعضُ هذه الآثارِ هو الَّذي يدفَعُ بالبشريَّةِ اليومَ إلىٰ إعلانِ «**حقوقِ الإنسانِ**».

وحقيقةً أن هذا الإعلانَ لم يأخُذ طريقَه الواقعيَّ في حياةِ البشريَّةِ. وحقيقةً أَن «**الإنسانَ**» ما يزالُ يلقَى المهانةَ والإذلالَ والتعذيبَ والحِرمانَ في شتَّىٰ أَنحاءِ الأَرضِ. وحقيقةً أَنَّ بعضَ المذاهبِ تجعَلُ مقامَ الإنسانِ دونَ مقامِ الآلةِ، وتقتُلُ حريَّةَ الإنسانِ وكرامتَه وخصائصَه العُليا في سبيلِ وفرَةِ الإنتاجِ ومضاعفَةِ الدَّخلِ، والتفوُّقِ في الأَسواقِ!

كلُّ هذا صحيحٌ. ولكنَّ هذا الخطَّ ما يزالُ قائمًا في مداركِ البشريَّةِ وتصوراتِها. ولم يعُد غريبًا عليها كما كانَ يومَ جاءَها الإسلامُ. وهي اليومَ أَقدرُ علىٰ إدراكِه وتصوُّرِه، حينما تُخاطَبُ بهِ في الجولَةِ القادِمة بإذنِ الله.



* أُمَّةٌ واحدةٌ:

وجاءَ الإسلامُ فوجدَ النَّاسَ يتجمَّعونَ علىٰ آصِرَةِ النسَبِ، أَو يتجمَّعونَ علىٰ آصرَةِ الجنسِ، أَو يتجمَّعونَ علىٰ آصرَةِ الأَرضِ، أَو

يتجمَّعونَ علىٰ آصرَةِ المصالحِ والمنافعِ القريبَةِ.. وكلُّها عصبياتٌ لا علاقةَ لها بجوهرِ الإنسانِ؛ إنَّما هيَ أَعراضٌ طارئةٌ علىٰ جوهرِ الإنسانِ الكريمِ.

وقالَ الإسلامُ كلِمَته الحاسمةَ في هذا الأَمرِ الخطيرِ، الَّذي يحدِّدُ علاقاتِ النَّاسِ بعضِهم ببعضٍ تحديدًا أَخيرًا.

قالَ: إنَّه لا لونَ ولا جنسَ، ولا نسَبَ ولا أَرضَ، ولا مصالحَ ولا منافعَ، هي الَّتي تجمَعُ بين النَّاسِ أَو تفرِّقُ.. **إنَّما هي العقيدَةُ.. هي علاقَتُهم بربِّهم الَّتي تحدِّدُ علاقتَهم بعضَهم ببعضٍ. فعلاقَتُهم بالله هي الَّتي منحَتهم إنسانيَّتَهم. ومن ثَمَّ فهيَ الَّتي تقرِّرُ مصائرَهم في الدُّنيا والآخرةِ سواءً.** إنَّ النفخَةَ الَّتي جاءَتهم من روحِ الله هي الَّتي جعلَتْ من الإنسانِ إنسانًا، وهي الَّتي كرَّمتْ هذا الإنسانَ وسخَّرَت له ما في السَّمٰواتِ وما في الأَرضِ. فعلىٰ أَساسِ هذه الحقيقَةِ يتجمَّعُ النَّاسُ أَو يفترِقون إذنْ؛ لا علىٰ أَساسِ أَي عرَضٍ آخرَ طارئٍ علىٰ حقيقَةِ الإنسانِ.

إنَّ آصرَةَ التجمُّعِ هي العقيدَةُ، لأَنَّ العقيدةَ هي أَكرَمُ خصائصِ الرُّوحِ الإنساني. فأَمَّا إذا انْبَتَّتْ هذه الوشيجَةُ فلا آصرةَ، ولا تجمُّعَ، ولا كيانَ!



إنَّ الإنسانيةَ يجبُ أَن تتجمَّعَ علىٰ أَكرَمِ خصائصها، لا علىٰ مثلِ ما تتجمَّعُ عليهِ البهائمُ من الكلأِ والمرعىٰ، أَو من الحدِّ والسِّياجِ!

إنَّ هناكَ حزبَينِ اثنَينِ في الأَرضِ كلِّها: حزبُ الله وحزبُ الشَّيطانِ. حزبُ الله الَّذي يقِفُ تحتَ رايةِ الله ويحمِلُ شارَته. وحزبُ الشَّيطانِ وهو يضمُّ كلَّ ملةٍ، وكلَّ فريقٍ، وكلَّ شعبٍ، وكلَّ جنسٍ، وكلَّ فردٍ لا يقِفُ تحتَ رايةِ الله.

والأُمَّةُ هي المجموعةُ من النَّاسِ تربِطُ بينَها آصرَةُ العقيدَةِ. وهِيَ جنسيَّتُها. وإلَّا فلا أُمَّةَ، لأَنَّه ليسَتْ هناكَ آصرةٌ تجمَعُها.. والأرضُ، والجنسُ، واللُّغَةُ، والنسَبُ، والمصالحُ الماديَّةُ القريبَةُ، لا تكفي واحدةٌ منها، ولا تكفِي كلُّها لتكوينِ أُمَّةٍ، إلَّا أَن تربِطَ بينها رابطةُ العقيدةِ.

الآصرةُ فكرةٌ تعمُرُ القلبَ والعقلَ، وتصوُّرٌ يفسِّرُ الوجودَ والحياةَ.. ويرتبطُ بالله، الَّذي من نفخَةِ روحهِ صارَ الإنسانُ إنسانًا، وافترَقَ عن البهائمِ والوحوشِ، وافترَقَ تجمُّعه عن تجمُّعها، وامتازَ بالتكريمِ من الله.

وقالَ اللهُ للمؤمنين به في كلِّ أَرضٍ، وفي كلِّ جيلٍ، ومن كلِّ

جنسٍ ولونٍ، ومن كلِّ فريقٍ وقبيلٍ، علىٰ مدارِ القرونِ، من لدُن نوحٍ عليهِ السَّلامُ، إلىٰ محمدٍ ـ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ ـ وإلىٰ آخرِ الزَّمانِ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفاضلَ بينَ النَّاسِ بعضِهم وبعضٍ علىٰ أَساسِ العقيدةِ؛ مهما تكُن روابطُ النَّسبِ بينهم، ووشائجُ الجنسِ والأَرضِ. فقالَ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وجعلَ هنالكَ سببًا واحدًا للقتالِ ـ حيثُما لا يكونُ بُدٌّ من القتالِ ـ هو الجهادُ في سبيلِ الله. وحدَّدَ هدَفَ المؤمنينَ، وهدفَ غيرِ المؤمنينَ تحديدًا حاسمًا صريحًا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وكانَ غريبًا على البشريَّةِ كلِّها في ذلكَ الزَّمانِ، أَن يتجمَّعَ النَّاسُ علىٰ عقيدةٍ، وأَلا يتجمَّعوا علىٰ أَرضٍ، ولا علىٰ جنسٍ، ولا علىٰ



لونٍ، ولا علىٰ تجارةٍ، ولا علىٰ أَي عرضٍ من الأَعراضِ الزهيدةِ!

كانَت هذه «**المذهبيَّة**» بتعبيرِ العصرِ الحاضرِ، مسأَلةً غريبةً جدًا يومَ جاءَ بها الإسلامُ.. ولكِن ها هي ذي البشريَّةُ في الأَيَّامِ الحاضرَةِ تستَسِيغها، فتتجمَّعُ أَوطانٌ وأَقوامٌ ولغاتٌ وألوانٌ وأَجناسٌ شتَّىٰ.. علىٰ.. علىٰ مذهبٍ!

حقيقةً إنَّها لا تتجمَّعُ علىٰ عقيدةٍ في الله، إنما تتجمَّعُ علىٰ مذهبٍ في الاقتصادِ أَو الاجتماعِ.. ذلكَ أَنَّ البشريَّةَ هابطةٌ. الأَعراضُ القريبَةُ أَكرَمُ عليها من الحقيقَةِ الكَبيرةِ. ولكنَّها علىٰ أَيةِ حالٍ تُدرِكُ أَنَّ رابطةَ التجمُّعِ يمكِنُ أَن تكونَ عقيدةً. يمكن أَن تكونَ فكرةً. يمكن أَن تكونَ رابطةً معنويةً!

وهذا تقدُّمٌ علىٰ كلِّ حالٍ!

وبقيَ أَن ترتفِعَ البشريَّةُ، وأَن تتطلَّعَ إلىٰ ما هو أَكرَمُ وأَعلىٰ. وأَن تَدْرُجَ في المرتقَى الصَّاعدِ إلى القمَّةِ السَّامقَةِ. علىٰ حداءِ الإسلامِ في الجولةِ القادمَةِ. مزوَّدةً برصيدِ الفطرةِ القديمِ، ومستعينةً كذلكَ بهذا الرَّصيدِ الجديدِ!



* ذمةٌ وخلقٌ:

... ولكنَّ الإسلامَ حينَ جمعَ النَّاسَ علىٰ آصرةِ العقيدةِ، وجعلَها هي قاعدَةَ التجمُّعِ، أَو قاعدةَ التفرقَةِ لم يجعَلِ الإكراهَ على العقيدَةِ قاعدةَ الحركةِ فيهِ، ولا قاعدةَ التعامُلِ. ولم يجعَلْ شريعةَ الغابِ والنابِ هي الَّتي تحكُمُ علاقاتِهِ بالآخرينَ، الَّذين لا يعتنِقُونَ عقيدَته، ولا يتجمَّعونَ علىٰ آصِرَته.

لقد فرَضَ اللهُ الجهادَ على المؤمنينَ؛ لا ليكرِهوا النَّاسَ علىٰ اعتناقِ الإسلامِ؛ ولكن ليقيمُوا في الأَرضِ نظامَه الشامِخَ العادِلَ القويمَ. علىٰ أَن يختارَ النَّاسُ عقيدَتهم الَّتي يحبُّونَ، في ظلِّ هذا النِّظامِ الَّذي يشمُلُ المسلِمَ وغيرَ المسلمِ، في عدلٍ تامٍّ.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

واعتبرَ الأَرضَ الَّتي يسيطِرُ عليها النظامُ الإسلاميُّ وتحكُمها الشَّريعَةُ الإسلاميَّةُ هي «**دار الإسلامِ**» سواءٌ كانَ سكَّانها من معتَنِقي عقيدَته كلِّهم أَو كانَ بعضُهم من معتنِقي الدِّياناتِ الأُخرىٰ.. واعتبرَ



الأرضَ الَّتي لا يسيطرُ عليها النظامُ الإسلاميُّ، ولا تحكُمها الشَّريعةُ الإسلاميةُ هي **دارَ الحربِ** أيًّا كانَ سكَّانُها!

لم يَتْرُكْ الأَمرَ لشريعةِ الغابِ والنَّابِ في العلاقاتِ بينَ دارِ الحربِ ودار الإسلامِ. بل نظَّمَ هذه العلاقاتِ تنظيمًا دقيقًا، يحكُمُه الخُلقُ والنظافَةُ والاستقامةُ.

فدارُ الإسلامِ إمَّا أَن تكونَ علىٰ عهدٍ وميثاقٍ مع دارِ الحربِ، فهو العهدُ المرعيُّ والميثاقُ المحفوظُ؛ لا غدرَ فيهِ ولا خيانةَ؛ ولا مباغتةَ ولا مفاجأة؛ إلَّا أَن ينقَضِي الأَجلُ، أَو يَنقُضَ العهدَ أَهلُ دارِ الحربِ.

وإمَّا أَن تكونَ هناكَ موادعةٌ ـ بلا معاهدةٍ مؤقَّتةٍ ـ فهي الموادَعةُ إلَّا أَن يُنبَذَ إلىٰ أَهلِ دارِ الحربِ ـ عندَ خوفِ الخيانةِ ـ ويُعلَنُوا بانقضاءِ فترةِ الموادَعةِ.

وإمَّا أَن تكونَ هي الحربُ.. وللحربِ قيودٌ وضماناتٌ. فإن جنحُوا للسِّلمِ مؤثِرينَ المعاهدةَ والجزيةَ والرِّضَىٰ بالنظامِ الإسلاميِّ، مع حريَّتِهم في اختيارِ العقيدَةِ، فلهُم ذلكَ على المسلِمينَ:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝ فَإِمَّا

تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ❁ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ❁ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ❁ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ❁ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٥٥ ٦١].

وأكَّدَ على الوفاءِ بالعهدِ، مُبطلًا حجَّةَ مصلحَةِ الدولةِ فإنَّها لا تجيزُ نقضَ العهودِ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ❁ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: ٩١ ٩٢].

فإذا كانتِ الحربُ فهي الحربُ الَّتي لا تُهتَكُ فيها حرمةٌ؛ ولا يقتَلُ فيها صبيٌّ ولا شيخٌ ولا امرأةٌ؛ ولا يحرَّقُ فيها زرعٌ، ولا يتلَفُ فيه ضَرعٌ؛ ولا يمثَّلُ فيها بإنسانٍ؛ ولا تصيبُ إلَّا المقاتلِينَ الَّذين يحملونَ السِّلاحَ في وجهِ المسلمينَ.. وهذهِ وصيةُ أبِي بكرٍ لجيشِ أُسامةَ وهو ذاهبٌ لمقاتلةِ الرُّومِ:

(لا تخونُوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدُروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتُلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأةً. ولا تَعقِروا نخلًا ولا تحرِقوه، ولا تقطَعوا شجرةً مثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بعيرًا إلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وسوفَ تمرُّونَ بأَقوامٍ قد فرَّغوا أَنفسَهم في الصوامعِ، فدعُوهم وما فرَّغوا أَنفُسَهم له.. اندَفِعوا باسمِ الله)...

ولستُ أَنوي هنا استقصاءَ قوانينِ المعاملاتِ بين دارِ الإسلامِ ودار الحربِ، ولا بين المسلمينَ وسائرِ الأَقوامِ. فهذا البحثُ المجمَلُ ليسَ مكانَ هذا التَّفصيلِ.. إنَّما أُريدُ أَن أَصِلَ إلى الخطِّ العريضِ الَّذي أَقامَه الإسلامُ في الأَرضِ، للتَّعاملِ بين المعسكراتِ المختَلِفةِ، حيثُ لم يكُن لذلكَ الخطِّ وجودٌ. فما كانَتِ الأُممُ يوم جاءَ تتعامَلُ إلَّا بقانونِ السَّيفِ وحدَهُ، أَو قانونِ الغابِ والنَّابِ فمن كانَ يملِكُ القوةَ فكلُّ شيءٍ له حلالٌ. والمغلوبُ لا حقوقَ له على الإطلاقِ!

هذا الخطُّ الإسلاميُّ العريضُ لم يذهَبْ ولم يُمحَ من واقعِ البشريَّةِ فقَد بدأَ العالمُ في القرنِ السَّابعَ عشرَ الميلاديِّ **(القرنِ الحادي عشرَ الهجريِّ)** في التعامُلِ علىٰ أَساسٍ من القانونِ! وأَخذَ يخطو خطواتٍ متواليةً في «**القانونِ الدَّوليِّ**» وجعلَ يحاولُ إقامةَ هيئاتٍ دَوليةٍ للتحكيمِ في القرنِ التاسعَ عشرَ، وظلَّتْ هذه التَّشكيلاتُ تتأَرجَحُ بين

النَّجاحِ والفشَلِ حتَّى اللَّحظةِ الحاضِرةِ.. ووجِدَت بحوثٌ قويةٌ وضخمةٌ في القوانينِ الدوليَّةِ.

ومن ثَمَّ لم تعُدِ الأَنظمةُ الَّتي جاءَ بها الإسلامُ غريبةً غربتَها يومَ جاءَ. حقيقةً أَنَّ البشريةَ لم ترتفِعْ قطُّ إلى المستوى الأَخلاقيِّ الَّذي بلغَته الجماعةُ المسلمةُ في التعاملِ الواقعيِّ.

وحقيقةً أَنَّ نكساتٍ قويةً قد وقعَتْ في هذا العصرِ حتَّىٰ في القوانينِ الدوليَّةِ النظريَّةِ الَّتي وصلَ إليها الفقهُ القانونيُّ في العالم الغربيِّ. فأَلغىٰ شرطَ إعلانِ الحربِ. ونقضِ المعاهداتِ، وإنهاءِ الموادعاتِ! وأَصبحَ الأَمرُ غِيلَةً أَشدَّ من حالةِ الوحوشِ في الغابِ!

وحقيقةً أَنَّ دوافعَ الحربِ والسِّلمِ لم ترتفِعْ قطُّ عن المصالحِ والمغانمِ والأَسلابِ والأسواقِ؛ ولم ترقَ قطُّ إلىٰ أُفقِ الفكرِ والعقيدَةِ والخيرِ والعدلِ والصَّلاحِ الَّتي يستهدِفُها الجهادُ في الإسلامِ.

كلُّ هذا صحيحٌ، ولكنَّ خطَّ التعاملِ الدوليِّ علىٰ أَساسٍ من القانونِ المعروفِ لجميعِ الأَطرافِ.. قد وجِدَ. أَوجدَهُ الإسلامُ لأَوَّلِ مرةٍ. وخطَّهُ في حياةِ البشريَّةِ ذلكَ المنهجُ الإلهيُّ القويمُ الرفيعُ.



فإذا خوطبَتِ البشريَّةُ مرةً أُخرَىٰ بهذا المنهَجِ لم يكُن هذا الخطُّ غريبًا عليها ولا مُستنكَرًا.. قد تظلُّ أُسسُه الأَخلاقيَّةُ الرَّفيعَةُ غريبةً على البشريَّةِ الواغلَةِ في مستنقَعِ الجاهليَّةِ، فترةً من الزَّمانِ. ولكنَّ أَصلَ الخطِّ وصورتَه لن تكونَ غريبةً ولا مستنكرةً.

والإسلامُ الَّذي اعتمَدَ أَوَّلَ مرةٍ علىٰ رصيدِ الفطرَةِ وحدَهُ في إقرارِ مبادئه، ورسمِ خطوطِهِ، سيعتمِدُ في الجولةِ القادمَةِ علىٰ ذلك الرصيدِ. ويعتمِدُ إلىٰ جانبِه علىٰ تلكَ التَّجاربِ الواقعَةِ المعهودةِ. وسيكونُ ـ بإذنِ الله ـ أَقدرَ علىٰ استئنافِ خُطواتِه من جديدٍ.. بهذا الرَّصيدِ.



وبَعْدُ!

وبعدُ، فإنَّنا لا نملِكُ في هذا البحثِ المجمَلِ أَن نمضِيَ أَكثرَ من هذا في الحديثِ عن الخطوطِ العريضَةِ الَّتي خطَّها الإسلامُ في حياةِ البشريَّةِ وتاريخِها وواقعِها، والَّتي لم تكُن معروفةً من قبلُ ولا مأْلوفةً، والَّتي بقيَتْ منها ملامحُ وآثارٌ في حياةِ البشَرِ، مهما تكُنْ باهتةً. ومهما تكُنْ منحرفةً، ومهما تكُنْ هابطةً عن القمَّةِ السَّامقَةِ الَّتي ارتفَعَ إليها النَّاسُ في ظلِّ المنهَجِ الإلهيِّ القويمِ..

فهذِه النماذجُ القليلَةُ الَّتي أَشَرنا إليها تصلُحُ إشارةً إلىٰ عشراتِ الخطوطِ العريضَةِ الَّتي أَقرَّها ذلكَ المنهَجُ. بعد أَن أَنشَأها إنشاءً. ويمكِنُ القياسُ عليها في شتَّىٰ جوانبِ الحياةِ البشريَّةِ خلالَ أَربعمئةٍ وأَلفِ عامٍ.





ولكنَّ الكلمَةَ الَّتي لا بُدَّ أَن تُقالَ في ختامِ هذا البحثِ المجمَلِ، كي لا يغتَرَّ الدُّعاةُ إلى الله، وإلىٰ منهَجِ الله، بهذه العواملِ المساعدةِ، وينسَوا أَخذَ الأُهبةِ كاملةً لأَشواكِ الطَّريقِ وعوائقِه..

هذهِ الكلمَةُ ينبغي أَن تكونَ عن الخطوطِ المضادَّةِ، وعن عوائقِ الطَّريقِ الكَأْداء![1]

إنَّ البشريَّةَ بجملَتِها اليومَ.. أَبعَدُ من الله..

إنَّ الركامَ الَّذي يرِينُ على الفطرَةِ أَثقَلُ وأظلَمُ. فالجاهليَّاتُ القديمةُ كانت جاهليَّاتِ جهلٍ وسذاجةٍ وفتوَّةٍ. أَمَّا الجاهليةُ الحاضرةُ فجاهليةُ علمٍ! وتعقيدٍ! واستهتارٍ!

إنَّ الفتنةَ بفتوحاتِ العلمِ في القرنينِ الثامنَ عشرَ والتاسعَ عشرَ الميلادِيين كانَتْ فتنةً طاغيةً. والهروبُ من الكنيسَةِ، ومن إلَهِ الكنيسَةِ الَّذي تصولُ باسمِه وتجولُ، وتحرِقُ العلماءَ، وتعذِّبُ المفكِّرينَ، وتناهِضُ النَّهضاتِ.. كان هروبًا مجنونًا آبقًا لا يلوِي علىٰ شيءٍ؛ ولا يُبقِي علىٰ مقدَّسٍ!

حقيقةً إنَّ العلمَ ذاتَه منذ مطلَعِ هذا القرنِ قد أَخَذَ يقودُ كبارَ العلماءِ الى الله من جديدٍ. والفطرَةُ الَّتي أَشقاها الضَّربُ في التِّيهِ

---

(١) «**الكَأْدَاءُ**»: الشِّدَّة. وعَقَبَةٌ كأْداءُ: صَعبة المُرْتَقَى.

قد بدأَ يبدُو عليها التَّعبُ والحنِينُ الى الله من جديدٍ.. ولكن تلكَ الفتنةَ ما تزالُ في عنفُوانها. وقد ينقَضِي هذا القرنُ كلُّهُ قبلَ أَن تظهَرَ البوادِرُ الكاملةُ لعودَةِ القطيعِ الشاردِ من التيهِ البعيدِ.

والحياةُ الدُّنيا قد اتسعَتْ رُقعَتُها في حسِّ النَّاسِ وواقعِهم! اتَّسعَت رُقعَتُها بما استحدثَته الحضارةُ من وسائلِ الحياةِ والمتاعِ والاستقرارِ في الأَرضِ، وأَحسَّ النَّاسُ بضخامةِ هذهِ الحياةِ في واقعِهم وفي مشاعرِهم سواء. وأَضافَتِ العلومُ والثَّقافاتُ والفنونُ والهواياتُ مساحاتٍ ضخمةً إلىٰ رقعةِ الحياةِ في واقعِ النَّاسِ وفي مشاعرِهم سواء!

ولو قامَ هذا كلُّهُ علىٰ أَساسٍ من المعرفَةِ بالله، وبخصائصِ الأُلوهيَّةِ وخصائصِ العبوديَّةِ، وعلىٰ أَساسٍ من الحقيقَةِ العميقَةِ: حقيقةِ أَنَّ اللهَ هو الَّذي استخلَفَ الإنسانَ في الأَرضِ، وسخَّر له ما فيها، وزوَّدَه بالمواهبِ والاستعداداتِ الَّتي تعينُه على الخلافةِ، وتيسِّرُ له طيباتِ الحياةِ كلِّها.. وأَنَّه مبتلىٰ في هذا كلِّه ليحاسَبَ في الآخرةِ علىٰ ما قدَّمَ في حياتِه الدُّنيا..

لو قامَ هذا كلُّه علىٰ هذا الأَساسِ الصَّحيحِ، لكانتْ هذه المساحاتُ الجديدةُ الَّتي أَضافَها العلمُ وأَضافَتها الحضارةُ،



لرقعةِ الحياةِ في واقعِ النَّاسِ ومشاعرِهم.. مساحاتٍ تُضافُ إلىٰ رقعةِ الإيمانِ، وتزيدُ النَّاسَ قربًا من الله ومنهَجِه القويمِ الممثَّلِ في الإسلامِ.

ولكِنَّ هذا كلَّهُ إنَّما قامَ علىٰ أَساسِ الهروبِ من الكنيسَةِ الطاغيةِ ومن إلهِها الَّذي تستَطِيلُ به على النَّاسِ! فكانَتْ هذه الإضافَةُ إلىٰ رقعَةِ الحياةِ مبعِدَةً عن الله، وعقبةً في الطريقِ إليهِ، ينبَغِي أَن يحسِبَ حسابها الدعاةُ!

حقيقةً إنَّ البشريَّةَ قد شقِيت وتعِبَت من حملِ هذِه الحضارَةِ الماديَّةِ، والمضيِّ في متاعِها المترَفِ. وحقيقةً إنَّ الفسادَ والانحلالَ والأَمراضَ العصبيَّةَ والنفسيَّةَ، والشذوذَ العقلِيَّ والجنسِيَّ، وآثارَ ذلكَ كلِّهُ تنخُرُ في جسمِ هذه الحضارَةِ، وتُشقِي الأُممَ والأَفرادَ، وتفتَحُ الأَعيُنَ بعنفٍ على الشرِّ والفسادِ والدمارِ..

ولكنَّ البشريةَ ما تزالُ في هياجِها الحيوانيِّ، وفي خُمارِها الجنونيِّ، وفي نشوَتِها المُعربدَةِ.. وقد ينقضِي هذا القرنُ كلُّهُ قبلَ أَن تتفتَحَ العيونُ فعلًا وتصحُوَ الأَدمغةُ من هذا الخُمارِ، وتكفَّ البشريَّةُ أَو تفكِّرَ في أَن تكفَّ عن هذا الدُّوارِ!



وكانتِ الجاهليَّاتُ الأُولىٰ قريبةَ العهدِ بالبداوةِ، فيها فتوَّةُ البداوةِ وجدُّها علىٰ كلِّ حالٍ.

كانَتْ للنَّاسِ تقاليدُ، وكانَتْ أَخلاقُ الفتوَّةِ في الغالبِ تحكُمُ تصرُّفاتِ النَّاسِ.

وعلىٰ قدرِ ما كانَتْ هذه الفتوَّةُ تجعَلُ المعركةَ بين أَصحابِ الدَّعوةِ وأَصحابِ الجاهليةِ قاسيةً وعنيفةً، فإنَّها كانَتْ تجعَلُها مكشوفةً وصريحةً.. كانَت الفطرةُ قريبةً.. تلبِّي وتجيبُ، من قريبٍ، من وراءِ العنادِ والكبرياءِ.. وكانَ هناكَ الجدُّ الصارمُ في الكُفرِ أَو الإيمانِ سواءً..

وهذا علىٰ كلِّ ما يثيرُه من المتاعبِ، خيرٌ من الميوعةِ والاستهتارِ وعدمِ المبالاةِ!

والبشريَّةُ اليومَ تعاني من التميُّعِ والاستهتارِ والاستخفافِ بكلِّ عقيدةٍ وكلِّ رأيٍ وكلِّ مذهبٍ. كما تعاني من نفاقِ القلبِ، وكيدِ الضَّعفِ وخبثِ الاحتيالِ!

وكلُّها عقباتٌ في طريقِ الدَّعوةِ إلى الله، ومعوقاتٌ عن الاستقامةِ علىٰ منهَجِ الله.





وغيرُ هذا كثيرٌ من لونِه، ومن أَلوانٍ شتَّىٰ، ينبغِي أَلا نهوِّنَ من شأْنِه، كي لا يغترَّ الدُّعاةُ إلى الله بالعواملِ المساعدةِ، ثمَّ لا يتزوَّدوا كلَّ الزادِ..

ولكنْ ما الزادُ؟

إنَّه زادٌ واحدٌ... زادُ التَّقوىٰ.. إنَّه الشُّعورُ بالله علىٰ حقيقَتِه.. إنَّه التعاملُ مباشرةً معَ الله.. والثِّقةُ المطلقَةُ بوعدِه الجازمِ الحاسمِ:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والأَمرُ كلُّه هو أَمرُ العُصبةِ المؤمنَةِ الَّتي تضَعُ يدَها في يدِ الله. ثمَّ تمضِي في الطَّريقِ. وعدُ الله لها هو واقِعُها الَّذي لا واقعَ غيرُه، ومرضاةُ الله هي هدفُها الأَوَّلُ وهدفُها الأَخيرُ.

وهذه العُصبةُ الَّتي تجرِي بها سُنةُ الله في تحقيقِ منهَجِ الله، وهي الَّتي تنفُضُ ركامَ الجاهليَّةِ عن الفطرةِ، وهي الَّتي يتمثَّلُ فيها قدَرُ الله في أَن تعلُوَ كلمَتُه في الأَرضِ، ويتسلَّمَ منهَجُه الزِّمامَ:

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۞ وَلَا تَهِنُواْ

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ـ ١٤١].

وصدق الله العظيم

۞ ۞ ۞

تمَّ بحَمْدِ الله تعَالى وتوفيقِه

و«الحمَدُ لله الَّذي بِنعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحات».





ٱلْمُحْتَوَيَات





ISBN : 978- 605- 2107 - 37- 9

